مسيرة المناضل الشّاعر مفدي زكريّاء من السّياسة والسّجن إلى الثّورة والإبداع الأدبيّ

The journey of the poet Mufdi Zakaria from politics and prison to revolution and literary creativity

فلاّح نورة
المدرسة العليا للأساتذة ببشّار
almarifa3@gmail.com
شعباني سليمة
المدرسة العليا للأساتذة ببشّار
salimasalima99@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020\10\15 تاريخ القبول: 2021\09\29

الملخص:

يعد الشَّعرَ أكثر الأعمال الفنيَّة التحاما بالثّورات وأوسعها تأثيرا في الشّعوب بما يقوله الشّعراء مساهمة منهم في التّمهيد للانتفاضات والثّورات والحركات التّحرّريّة والدّعوة إليها، وتصوير حوادثها ووقائعها تصويرا فنيّا دقيقا، كما يمكننا أن نطلق مصطلح الشّعر الثّوريّ على كلّ نظم يمجّد الثّورات، ويفتخر بمآثرها، ويمدح المجاهدين، ويتغنّى بمعاركهم ضدّ أعدائهم، وبخاصّة حين يتفنّن في هضم حقوق المواطنين الأبريّاء، وتشريدهم، واضطهادهم، والواقع أنّ الشّعوب تبنّت القصائد الثّوريّة وردّدتها أناشيد وطنيّة مذ اندلعت الثّورة. ويزخر تاريخ الشّعر الوطني الجزائريّ بالعديد من الشّعراء الّذين احتضنوا الثّورة التّحريريّة، فتوغّلت قضيّتهم أعماق قلوبهم، فعانقتها لتصّك حروفها من ذهب. ولعلّ منهم الشّاعر مفدي زكريّاء. من هو؟وماذا قدّم للجزائر حتّى لقّب بشاعر الثّورة؟

الكلمات المفتاحيّة:مفدي زكريّاء، بيئته، شعره، جهاده، وطنيّته، مؤلّفاته.

Summary:

Poetry is the most closely linked artwork with revolutions and

has the widest influence on the wretched peoples who suffered from the pressures of their enemy, Poets are the recipients of eventsand the inspirational of revolutions and liberation movements, and calling for them to participate with others to fight against injustice, and artistically depicting their holly facts. He is proud of his exploits, praises the Mujahideen, and sings songs of their battles against their enemies, especially when he excels the rights of innocent citizens, displacing them, and persecuting them. The history of Algerian national poetry is replete with many poets who embraced the liberation revolution, so their cause penetrated the depths of their hearts, so I embraced it to make its letters of gold. Perhaps one of them is the poet of the revolution, Mufdi Zakaria. who is he? And what did he do for Algeria to be called the poet of the revolution?

Keywords: Moufdi Zakaria, his environnement, his poetry, his jihad, his patriotism, his writings.

فلاح نورة، الإيميل:almarifa3@gmail.co

أولا. مقدمة:

لم تكن قرية بني يزقن الحالمة، الرّابضة في قصر من قصور مدينة غرداية الهادئة، تتوقّع أنّ بكاء ذاك المولود الجديد في تلك اللّيلة المباركة، من يوم الثّاني عشر جوان العام الثّامن وتسعمائة، وألف، كان صُراخا مدوّيّا في تلك القرية السّاكنة مُعلنة عن ميلاد اسم من الأسماء الخالدة في ثورة التّحرير، كما لم تتصوّر غرداية، تلك المدينة الصّحراويّة أنّ فاقتها ستنقلب ثراءً بامتلاكها الثّروتين اللّغويّة والشّعريّة اللّتين جادا بهما أحد أبنائها البررة، سليل الأبوين الجزائريّين قلبا وروحا ودما، لأنّهما الوالدان الرّاعيّان والمسؤولان عن رعيّتهما، قاوما وباء الجهل كيلا يفترس ابنهما، فوجّها بوصلته نحو مناهل العلوم النّافعة، والقيم الفاضلة ليتشبّع بالمبادئ السّاميّة كحبّ الله - تعالى- والدّين الإسلاميّ، واللّغة العربيّة، والانتماء للوطن الجزائر والكتابة له في كتب لا تزال مهملة في كهوف النّسيان، وإن قدّر لها الظّهور لم تُعتمَد في المقرّرات التّعليميّة.

ثانيا.الحياة الشّخصيّة لمفدي زكريّاء:

1 . حياة الشّاعر من الدّراسة إلى السّياسة:

تنقّل مفدي زكريّاء عبر المدارس داخل الوطن، وخارجه في تونس طلبا للاستفادة من الأجواء الثّقافيّة، والعلميّة المفعمة بالوطنيّة الّتي سادتها في تلك المرحلة، زيادة على ما اتّسم به المناضل الشّاعر من ثوريّة مستمرّة، وانتماءاته للعديد من الأحزاب، والجمعيّات ذات الطّابع السّياسيّ رغبة في لمّ شتات الشّعب على كلمة سواء. فبعد احتكاكه بكبار الشّخصيّات الدّينيّة والسّياسيّة والفكريّة استفاد من تجاربها في تكوينه الذّاتيّ، لتُجمع له عوامل الكمال الإنسانيّ، ويبدوَ في شخصيّة المواطن الجزائريّ المناضل المسلم، والمهتمّ بشؤون وطنه المغاربيّ العظيم في حلّه وترحاله، لينبغ بين جدرانه وفي أحضانه لشحذ جوانب ماديّة ومعنويّة في شخصيّته، فتتفجّر فيها مواهبه، وتزداد شخصيّته نقاءً. ولعلّ الحديث عن رجل في وزن مفدي زكريّاء يستوجب استحضار الكثير من التّركيز حتّى يُقدّر حقّ قدره، كونه المواطن الّذي نال- بجدارة - لقب شاعر الثّورة لتفانيه في نقل تفاصيل مراحلها في لوحات جميلة ابتهجت بجمالها أعين المتلقّين. فقد قالت عنه الكاتبة نسيمة زمّالي:" بعد جولتي المُمتعة والمُحزنة معا بين صفحات إلياذة الجزائر، آثرت أن أهمس ببعض أسرارها في آذان المتلقّين، ففي نهاية رحلتي عبر مرابع الجزائر الفيحاء الّتي نقلني إليها شاعر الثّورة في رحلة على متن إلياذته الغرّاء لأعانق أبطالا ما كنت لأتعرّف عنهم لولا مدحُه لهم بما يليق بمقامهم العاليّ، فوجدت أنّ كلماته العذبة كانت شافيّة كافيّة للتّعبير عن العديد من المشاهد الرّاسخة، والمواقف الخالدة، ولكنّ كلماتي البسيطة خانتني في تعبيري عن شخصه العظيم، وإيفائه حقّه من التّبجيل والتّكريم، اعترافا له بالفضل. ووقفت في ذهول أمام عظمة هذا النّجم بل الطّود الشّامخ (مفدي زكريّاء) فمذ قرأت بعض قصائده الّتي صادفتها في الكتب المدرسيّة، أو جادت بها

كتب متناثرة طالعتها حتّى صرت أكنّ لهذا البطل الوطنيّ، والرّمز الثّوريّ كلّ الامتنان. ولما تعمّقت في معرفته عن كثب تألّمت وتساءلت:" إنّ شخصا في وزن مفدي زكريّاء نُقشت حروف اسمه من ذهب على صفحات التّاريخ يرحل عن عالمنا رحلته الأبديّة، إنّها واللّه لخسارة كبرى أن تفقد الجزائر ابنها المطيع، الثّائر الّذي أرّق عدوّه، وأقضّ مضاجع جلاّديه بما لم تنل سيّاطهم القاسيّة منه استسلاما، ولم تجد لديه صرخة ألم أو تراجع عن مبدإ من المبادئ. والغريب أن يرحل من علّم الأجيال معنى الوطنيّة، وغرس في قلوبهم محبّة الوطن في أضواء خافتة، بل في الظّلام الدّامس والصّمت الرّهيب دون أن يُزلزل رحيله الكون كلّه إجلالا لثوريّته الثّائرة، وتقديرا لوطنيّته الحائرة، واحتراما لشاعريّته الشّاعرة. لَمْ تبكه السّماء دما، أو تنعيه الأرض ما سار فوق أديمها السّائرون. وأردفت قائلة:" إنّي أدين لك أيّها المناضل الشّاعر الثّائر، والمربّي الفاضل، والجبل الأشمّ، والمدرسة القدوة الّتي علّمتنا الفضائل، حين تجرّد منها سواد الأمّة. وأدين لك بتعليمي معنى الوطنيّة، والوطن، وغرس محبّته في نفسي بذرة وتعهّدها بالرّعاية حتّى صارت شجرة وارفة الظّلال. أدين لك بأنْ علّمتني احترام الكلمة، كونها اللّبنة الأساسيّة في القصيدة، وأن أحترم القصيدة لأنّها إيمان وعقيدة، وأقدّس العقيدة لأنّها الوسيلة الأوحد الّتي تسمو بالرّوح عن عالم الأرجاس في رحلتها إلى أفق الملكوت الطّاهر، وأعترف بعجزي عن التّعبير، لأنّ الكلمات قد خانتني، ولم تسعفني لأقدّرك حقّ قدرك. فعذرا أيّها الأب الحنون...عذرا يا أبت... فإنّني أهنّئك بدخولك التّاريخ من أوسع أبوابه، باب لا يعبره إلاّ العظماء عِظم آبائك الشّرفاء الّذين تجسّدت الرّجولة فيهم سلوكا، والنّخوة أخلاقا، والإباء سمة بل مبادئ فطوبى لك."[1]

إنّ رجلا في وزن مفدي زكريّاء المصلح الثّائر ضدّ كلّ ضروب الإفساد في أمّته جدير بأن يُقام له تمثال من ذهب متعدّد الأسماء لتعدّد تضحيّاته

تحريرا لبلاده، وتطهيرا لها من دنس الكفر، وأرجاس العبوديّة، وقابليّة الاستعباد، لإنقاذ العباد من ظلام الجهل، وقهر الفاقة، ووطأة الأوبئة." إنّه صاحب القلب النّابض، المعتزّ بوطنيّته، والسّياسيّ المحنّك الرّافض لكلّ أنواع الاستسلام لقوانين العدوّ الجائرة، وسياسته الدّاعيّة للإدماج بطمس معالم هويّة شعبه الجزائريّ العربيّ المسلم. إنّه الثّائر معلّم الشّعوب العربيّة والإسلاميّة كيف تتمرّد، وتثور. فعلا إنّ عربيّا في وزن مفدي زكريّاء متمكّن من ناصيّة اللّغة العربيّة، وممسك بزمام قواعدها، والمنتفض ضدّ محاولات تغريب الوطن العربيّ بمحاولة بتره من جذوره، وتهميش لغته الأمّ، لغة الضّاد والقرآن الكريم، تلك الوسيلة الّتي طوّعها لتكون أداته المُثلى للتّعبير عن المشاعر السّاميّة والقيم الإنسانيّة، لسان انتقى منه أجود الألفاظ، وأحسن الكلمات لتبدوَ عباراته أبهى. كما أنّ شاعرا في وزن مفدي زكريّاء ناظم متألّق في سماء حبك الشّعر، كما يعدّ المثقف المطّلع على تاريخ العرب وأقوالهم المأثورة، وأشعارهم الموزونة على شتّى البحور لتنسجم أنغامها، ويتناسق إيقاعها، فتتعانق قوافيها المنتقاة بأناة، وحروف رويّها الرّنّانة عناقا أخويّا في حميميّة لكشف سحر ألحان سمفونيّته الرّائعة الّتي أعدّها ليطرب بها أسماع متلقّيه، فحين نقرأ الشّعر الثّوريّلمفدي زكريّاء لوجدناه يعبّر ردود أفعاله عن مواقف، وسلوكيّات سلكها المستعمر تجاه قضايا مفصليّة في حياة الشّعوب المضطهدة، حيث عبّر فيها عن ثوريّته، وتمسّكه بثورته بلغة عربيّة راقيّة مستوحاة من معجم ثائر رافض للاستعباد والتّفاوض مع العدوّ، ولإيمانه بأنّ ما أخذ بالقوّة لا يسترجع إلاّ بها، فالقوّة هي وقود الشّعر الثّوريّ وهو صداها، ولعلّ ما قاله في قصيدته (تعطّلت لغة الكلام) ما يشير إلى دقّته في اختيّار الألفاظ الّتي استعملها الله -تعالى- في وصف أهوال يوم القيّامة، أو تصوير عقابه للأمم الجاحدة والمكذّبة للرّسلألفاظ نحو: الذّاريّات، والنّار،

الكواعب... إلى جانب استعانته بجمع المؤنّث السّالم لما يشمله من مدّ تتبعها التّاء المنوّنة وما لها من وقع على آذان المتلقّين في قوله:

لا النّار، ولا التّقتيل يثني عزمه لا السّجن، لا التّنكيل،
ولا الإعداملا الذّاريّات الماحقات هواطلا لا الشّامخات تدكّها الألغام
لا القاصرات الغافلات كواعب ديست قداستها وفضّ ختام
لا الحاملات بطونها مبقورة ذبحت أجنّتها فكّ حزام
لا المراضع عوضت أثداؤها بفم المسدّس والرّصاص فطام

كما جاء نظمه مرفقا بالموسيقى الحماسيّة المجلجلة الّتي حملت بين نغماتها الكثير من الصّور البيانيّة، والمحسّنات البديعيّة لرسم لوحات معبّرة عن جمال الثّورة وعنفوانها في تصوير يمزج بين الحقيقة والخيال، والدّين والأسطورة. نحو قوله:

"وثورة قلبي كثورة شعبي هما ألهباني فأبدعت شعرا"[2]
يا ثورة حار فيها الزّمان وفي شعبها الهادئ الثّائر[3]
ولعلع صوت الرّصاص يدوّيفعاف اليراع خرافات حب[4]

ولعلّ مصلحا في وزن مفدي زكريّاء موجّه مغاربيّ ملحّ على اتّحاده لوحدة مصيره، وتشابه آفاقه، لترشيد ثرواته، وتكامل اقتصاده، ومقوّماته كيلا يتداعى عليها الجشعون الجياع." ويتّضح ذلك في قوله:

فيامن تردّد في وحدة بمغربنا وادّعى وامترى
أما وحّد الأطلس المغربيمعاقلنا بوثيق العرى؟[5]

عاش مفدي زكريّاء حياة متواضعة في قريته بني يزقن متنقّلا بين البيت والكتاتيب، مستفيدا من نصائح أسرته المسؤولة، ومعلّميه المرشدين الّذين كادوا يكونون رسلا، قصد أخذ ما يُيسّر له أمور دينه ودنياه. ولمّا أدرك السّابعة من عمره التحق بالمدرسة، حيث اجتهد إلى حدّ أنّه عُرف بذكائه الحادّ، وبديهته الحاضرة، وقدراته الفائقة على استيعاب العلوم، ودوام

انضباطه في مواعيده للدّروس في الصّفّ والكتّاب، فكان محطّ إعجاب أساتذته، وأصدقائه. في هذه الفترة لاح ميله المبكّر لقرض الشّعر، فلم يتوان مَنْ تعرّف عليه في مساعدته على تنميّة موهبته تلك، وشحذها. وفي العقد الثّانيّ من القرن العشرين، ساد تونسَ جوّ ثقافيّ، صبغتْه القوميّة العربيّة الّتي أنارت شمسها تلك المرحلة، لتطغى على المقالات الصّحفيّة، والأعمال الأدبيّة المتنوّعة، ممّا استقطب المناضل مفدي زكريّاء، وجذبه إلى خوض غمار الحركة السّياسيّة والاجتماعيّة، لمّا أحسّ بتدفّق أحقاد المحتلّ، وطغيانه المُرفَق بالملاحقة الدّائمة للمواطنين الأبرياء، مستغلا ما حباه الله به من لسان فصيح، وفكر منير، ونظرة ثاقبة، وثقافة غزيرة، ليُدليَ بدلوه في توجيه الشّعوب العربيّة المقهورة، نحو سبل خلاصها من وطأة الغاصبين الّذين جثموا على صدر الأمّة من مشرقها إلى مغربها فتدفّقت قريحته سيلا من الأشعار المُحرّضة على التّمرّد على الغزاة، والدّاعيّة إلى الجهاد رغبة في الحريّة. وليس غريبا أن يتعاطى الشّاعر النّضال السّياسيّ حتّى الثّمالة، وهو المحبّ لوطنه الجزائريّ والعربيّ والإسلاميّ، لذا أجاد مدحه في نظمه، إضافة إلى كونه الصّحفيّ المقاوم لتحرير البلاد والعباد بما امتلك من قدرة على كتابة النّثر، فانهالت مقالاته برفق على صفحات المجلاّت، والصّحف لتشرح حقيقة معاناة الشّعوب المستعمَرة، وتكذيب ما أقاويل إعلام المستعمِر المضلّل. بخاصّة - وهو المواطن المنحدر من أسرة تتحرّى الصّدق قولا وفعلا – حيث صنعت منه رجلا صالحا، امتزجت دقائق شخصيّته برمال أرض وطنه روحا ودما إلى حدّ تسخير كيانه، وسكينته، وأشعاره لتمجيد الثّورات في الدّول المغاربيّة. ولمّا عاد من تونس، بدا مزوّدا بوطنيّة لا نظير لها مشبّعا بحبّه لوطنه، محمّلا بالعزم على النّضال تقريرا لمصير أمّته، فراح يُلهب حماس الثّائرين، ويحشد الجماهير حول الثّورة المظفّرة ومبادئها حتّى نال- باستحقاق-لقب شاعرها الثّائر القائل عنها في إلياذته:

"وفجّر ثورته من لظاها وسار على هديها في الغلاب" [6]

"وفي العام الثّالث والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، ترأّس مفدي زكريّاء تحرير جريدة (الحياة) الّتي أنشأهاصديقه أبو سعيد عدّون لتكون لسان حال المفكّرين بشمال إفريقيا، فكانت جريدة علميّة، وأدبيّة واقتصاديّة، وأخلاقيّة جامعة، ما أُسّست إلاّ لتُسهم في رقيّ الشّمال الإفريقيّ العلميّ والأدبيّ، والاقتصاديّ، تحت شعار (الإخلاص في العمل، والسّعي لصالح الوطن والمواطنين) ورائدها الصّدق، ودعامتها التّفكير الحرّ، والعلم الصّحيح، وحزبها الحقّ، ومبدأها الصّراحة."[7]

انتظم مفدي زكريّاء في صفوف نجم شمال إفريقيا الّذي حلّ محلّه حزب الشّعب الجزائريّ يوم: الحادي عشر مارس، العام السّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، فكتب افتتاحيّة لاجتماع الحزب قائلا:" أيّها الشّعب قد أذّن مؤذّن، فالبِدار، البِدار، فَلَاتَ حين هجوع، ودوّت في السّماوات الصّرخة الكبرى فَلَاتَ حين خنوع. أيّها الشّعب قد أُزلِفَت السّعادة – يومئذ– للعاملين الصّادقين، وبُرّزَتِ الهزيمة واللّعنة للمنافقين العابثين، وأخذتِ الّذين ظلموا الصّيحةُ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين واقتربتِ السّاعة يا شعبنا وانشقّ طريق الحياة، وحقّ لك أيّها الشّعب أن تتمتّع بصحافة حرّة صادقة، غير مخادعة، ولا تملك إلاّ الحقّ سلاحا، ولا ترى سوى الكفاح منهجا، فسلام عليك أيّها الشّعب يوم كنت حرّا عزيزا، يوم أردت أن تسترجع عزّك وحريّتك، ويوم تعود بفضل تضحيّاتك، وجهادك، واعتمادك على ربّك، وعلى نفسك سيّدا على أرضك، وربّا لبلادك." [8]ولعلّ في افتتاحيّته ما يُثبت براعة الشّاعر في اقتباسه من القرآن الكريم تحقيقا لما يُعرف بظاهرة التّناصّ، واستحضاره لما يخدم أغراضه من كتاب الله، ليُكسب مقاله مصداقيّة، وقدرة فائقة على التّأثير في عقول متلقّيه ونفوسهم، وإضفاء أهمّيّة رآها مناسبة لهذا الحزب

الوليد الجديد، ومكانة رجا اكسابها إيّاه بين أفراد المجتمع إلى جانب الدّور الّذي سيؤدّيه حزب الشّعب الجزائريّ في عالم النّضال السّياسيّ.

وجاء الوعد الحقّ، فقُرعت طُبول الحرب، وثار الجزائريّون ثورة عارمة، رغبة في الاستقلال بقيادة جبهة التّحرير الوطنيّ الّتي رافقها الشّعراء الوطنيّون معلنين عن الحراك النّضاليّ ليمارسوا دورهم الرّياديّ والقياديّ، فكان مفدي زكريّاء، ضمن الّذين عقدوا العزم أن تحيا الجزائر، فنال شرف تأليف النّشيد الوطنيّ الّذي تلقّفته فئات المجتمع بشغف، فردّده المجاهدون في الجبال الوعرة، وميادين الوغى، وتناقلته ألسنة الجيوش، والمدنيّين مرفقا بزغاريد الحرائر في حلّهم وترحالهم، لتبلغ أصداؤه مشارق الأرض ومغاربها. اعتقلت السّلطات الفرنسيّة الشّاعر في العام السّادس والخمسين، وتسعمئة، وألف، ولكنّ اعتقاله لم يثن من عزيمته، ولم يُضعف من همّته فما كان سجنه مجالا للتّذمّر، ولا مكانا للحسرة، وإنّما تحوّل إلى مصدر إلهام وإبداع، بدليل أنّ أغلب منتجاته الشّعريّة قيلت خلف القضبان الحديديّة للسّجون، ممّا أكسبه بصمة شاعر الثّورة ذي العاطفة الأصدق في عصره. وازداد نظمه تألّقا، فتوهّجت شاعريّته، فاتّسمت ثوريّته بالعنفوان، ومواقفه بالصّلابة، فتذوّق الشّعب نظمه وتغنّى به لتعبيره عن مشاعرهم الصّادقة بلسان عربيّ مبين، وتصويره لأشجانهم بأمانة ودقّة، فاكتسبت قصائده شرف النّشر في الصّحف، والمجلاّت العربيّة في الوقت الّذي نالت تلك الصّحائف شرف نشره وإيذاعه. وفي هذا الشّأن قال الشّاعر مفدي زكريّاء:" إنّني من أعماق الزّنازين الضّيّقة، وسجن البرواقيّة المُظلم، وسجنَيْ الحرّاش كريه الرّائحة، وبربروس أرسلت السّواد من ملاحمي، وأشعاري الثّوريّة باللّغة الفصحى وبالعاميّة الشّعبيّة كالطّلقات النّاريّة المصوّبة لتتسابق ونور البرق، وتتخطّى آفاق البسطاء، فتُسارع خطوات ثوّارنا الأشاوس في أعالي جبالنا الماردة الّتي ما بخلت بشهاداتها للّذين ضحوا بأهلهم،

وخلاّنهم، وأمنهم، وأمانهم" [9]ويشهد التّاريخ أنّ مجموع الفترة الّتي قضاها الشّاعر الثّائر في السّجن قد بلغ سبعا تفرّقت بين عامي السّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، والتّاسع والخمسين، وتسعمائة، وألف، وهي مرحلة لم تثبّط الإبداع الشّعريّ، وإنّما زادته توقّدا، فما خبت جذوة نظمه، بل ازداد ارتقاءً مؤكّدا عَبْرَه حرصَه على اتّحاد الدّول المغاربيّة، معترفا به في قوله:" انطلاقا من عمق عقيدتي، وإيماني الرّاسخ، ويقيني المُصِرّ على حتميّة وحدة المغرب العربيّ السّاريّة في دمي منذ العام الخامس والعشرين، وتسعمائة، وألف، دعوت لتحقيقها، وسعيت إلى تخليد بطولات الكفاح في أقطارنا المغاربيّة " [10]فاستطاع أن يعتليَ هرم الشّعراء الجزائريّين بفضل غزارة عطائه، وجودة إيقاعه، ووفرة إنتاجه وتنوّع قوالبه في نظم رائع جُمِعَ في ثلاثة دواوين شعريّة: (اللّهب المقدّس) في الواحد والسّتّين، وتسعمائة، وألف، و(تحت ظلال الزّيتون) في العام الخامس والسّتّين، وتسعمائة وألف. و(من وحي الأطلس) في العام السّادس والسّبعين، وتسعمائة، وألف. ولم يشرق صباح العامالثّاني والسّبعين، وتسعمائة، وألف، في تلك الصّبيحة المباركة الّتي أنارها نور ملحمته الشّعريّة الجزائريّة (إلياذة الجزائر) الّتي ضمّت بين دفّتيها أبدع اللّوحات الفنّيّة، لحكاية الشّعب الجزائريّ، وقصّته من البداية إلى النّهاية. ففضّل الكاتب الصّحفيّ بلقاسم بن عبد الله المهتمّ بشأن مفدي زكريّاء التّوقّف عند أهمّ مراحل حياة الشّاعر معتمدا عدّة حوارات أجراها معه مباشرة، خلال العامَين اثنين وسبعين، وتسعمئة، وألف، وخمسة وسبعين، وتسعمائة، وألف، قبل نشرها في كتابه(مفدي زكريّاء شاعر مجد ثورة) مرتكزا على نتائج دراسات توصّل إليها الدّكتور الأستاذ محمّد ناصر ومنشورات أصدرتها مؤسّسة (مفدي زكريّاء) الّتي لمع نجمها في بداية أكتوبر العام ألفين وواحد. [11]وقد شهد زملاء الشّاعر أنّه كان أميل إلى استعمال أسماء مستعارة منها: مُفَدَّى، وأبو فراس الحمدانيّ، وابن تُومرت والفتى

الوطنيّ، وهوميروس الجزائر، إلاّ أنّ اسمه الحقيقي هو الشّيخ زكريّاء بن سليمان الابن المطيع لمنطقة بني يزقن الواقعة في وادي ميزاب أين تابع دراسته الأولى بدْءًا من أبجديّات العلوم والمعارف إلى قراءة القرآن الكريم ترتيلا فحفظا، فتعلّم أصول الفقه الإسلاميّ، ومبادئ علوم اللّغة العربيّة، وفقهها وشاء– تعالى- أن يرافق الطّفل البارّ أباه التّاجر في سفر إلى عنّابة، ليساعده في أمور تّجارته، فانتهز الفرصة لطلب العلم ومواصلة تعليمه، ليعود بعدها إلى بلدته الحبيبة، ويمكث فيه طويلا، غير أنّه في الواحد والعشرين، وتسعمئة، وألف، سافر الشّاعر الشّابّ الشّغوف بطلب المعارف إلى تونس، في البعثة التّعليميّة الميزابيّة، فتنقّل بين مدارسها القرآنيّة الأهليّة، ومدرسة السّلام، ومدرسة الصّادقيّة، والمدرسة الخلدونيّة، ومعهد الآداب العليا بالعطّارين، وجامع الزّيتونة المعمور.وكم كانت هذه الفترة من أخصب المراحل حياته، وأثراها من حيث الثّقافة الذّاتيّة، فقد انكبّ على التّحصيل العلميّ، فأتقن القراءة والمطالعة، فدام حضوره المسامرات الأدبيّة، والفكريّة الهادفة الّتي اعتاد الشّاعر التّونسيّ العربيّ الكبّادي عقدها في منزله، واستدعاء نخبة من المثقّفين للمشاركة فيها فكان الشّاعر يُبلي فيها بلاءً حسنا، ممّا شحذ مواهبه الشّعريّة، وفي أوائل الخامس والعشرين وتسعمئة، وألف، نظم أوّل محاولة شعريّة له، في غرض الرّثاء لكبش العيد، مقتفيّا آثار الفيلسوف أبي العلاء المعرّيّ الشّاعر الكفيف، فأعيد نشر محاولته بجريدة الشّعب الثّقافيّة في الخامس من أوت العام الثّامن وسبعين، وتسعمائة، وألف، فظهرت خلالها نجابته لتبوح بسرّ بواكير أعماله الأدبيّة وبما جادت به قريحته الشّعريّة في قصيدة مطلعها:

"رفقا بلادي فأنت الكون أجمعهلك الفـؤاد وما في الجسم من رمـق.

لـولاك كنتُ هالكا فانيّا ومـن دمـــاء ومن روح وجثمـــان. [12]

غير أنّ الباحث بلحيا الطّاهر انتقد هذه القصيدة شكلا ومضمونا، مؤكّدا خلالها هزالة النّظم، وضآلة الخبرة الّتي انطلق بها مفدي زكريّاء في مجال الشّعر .[13]تلتها قصيدة أخرى وجّهها الشّاعر بحماس إلى إخواننا في المغرب الأقصى، إلى ثوّار الرّيف لتمجيد كفاحهم المسّلح بقيادة الزّعيم عبد الكريم الخطّابيّ ضدّ الإسبان. وقد نشرها أوّلا في جريدة لسان الشّعب بتونس في السّادس من ماي، العام الخامس والعشرين، وتسعمئة، وألف، ثمّ في جريدة الصّواب التّونسيّة، وصحيفتَي الأخبار واللّواء بمصر. حيث ظلّ مؤلّفها يُنشدها بحبّه وحماسه المعهودين على منبر نادي الحزب الحرّ التّونسيّ لذا اعتقله المحتلّ الفرنسيّ نصف شهر، ليُفرَج عنه بعدَها." [14]إلاّ أنّ حياته الأدبيّة اتّصلت اتصالا وطيدا بالنّشاط الوطنيّ والسّياسيّ، والدّليل على ذلك إنتاجُه الشّعريّ الغزير المنشور بين العامين السّابع والعشرين، وتسعمائة، وألف، والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، بجريدة الشّهاب ثمّ الصّحيفة (وادي ميزاب) ممّا أكّد تواجده بالجزائر مشاركته في حوادثه، وتقفّي جميع تطوّراته الاجتماعيّة والسّيّاسيّة، وبخاصّة ما كان في إطار الحركة الإصلاحيّة. وقد قال محمّد ناصر:" منذ عودة مفدي زكريّاء إلى أرض الوطن في العام السّادس والعشرين وتسعمئة، وألف، أصبح عضوا نشيطا في جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين، وأبرز المنتقدين لتيّار الإدماج ملحّا على تمسّكه بحريّة المغرب العربيّ، والدّعوة إليها. وما بيان عقيدة التّوحيد، ذي العشرة بنود المتّصلة بدين الإسلام، والعروبة، ووحدة الشّعوب المغاربيّة، إلاّ دليل على اهتمامه بالشّؤون المغاربيّة، ممّا أكسبه – بجدارة - لقبَ شاعر المغرب العربيّ الكبير، وقد وضع تلك الوثيقة الّتي تضمّ دعوته إلى الوحدة المغاربيّة بين أيدي الطّلبة في رابع مؤتمر لهم انعقد بتونس في الثّانيّ من أكتوبر، العام الرّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، ليشنّفأسماع متتبّعي آثاره الشّعريّة،بنشيده (نداء الجزائر روحي ومالي)، فخصّه في بداية الأمر بحزب

نجمة شمال إفريقيا، ليُصبحَ فيما بعدُ الأداة الجامعة للمناضلين الوطنيّين وتوحيد صفوفهم. وفي الخامس من مارس العام السّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، نشر قصيدته المُسمّاة (البُردة الوطنيّة الجزائريّة) بمجلّة الشّباب التّونسيّة الّتي غطّت أعمالا صحفيّة لرئيس تحريرها الشّاعر بيرَم التّونسيّ، وكانت على وتيرة خطّيّة حتّى ظهر مفدي زكريّاء ظهورا لائقا بمقامه كأبرز قائد في حزب الشّعب الجزائريّ بقصيدة تضمّن ثلاثة وأربعين بيتا مرفقة بمقدّمة بليغة بقلم رئيس تحرير الجريدة في الحادي عشر مارس العام السّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، بعد أن حلّت السّلطات الفرنسيّة حزب نجمة شمال إفريقيا." [15]كما شارك الشّاعر في عدّة ندوات، وتجمّعات، وتظاهرات نظّمها الحزب الوطنيّ، وقد ترأّس لجنتهالتّنفيذيّة، وبدا بهندام أنيق: جلاّبة خضراء، وقميص أبيض، وربطة عنق حمراءبها نجمة وهلال رمزا للعلم الوطنيّ الجزائريّ. وذكر أحد الفرنسيّين أنّ مفدي زكريّاء،ترأّس تحرير مجلّة الغرب الإسلاميّ في أوت، العام السّابع والثّلاثين، وتسعمئة، وألف، وكتب معظم موادّ عددها الأوّل، قُبيل اعتقاله برفقة السّياسيّ مصالي الحاج، في صباح اليوم نفسه. لتقرّر السّلطات الفرنسيّة منع إصدارها -وقد صدر عددها الثّانيّ- وفي العشرين سبتمبر، في السّابع والثّلاثين، وتسعمئة، وألف، ممّا أثار غضبه من أعماق سجنه، فنظم نشيد الشّهداء (اعصفي يا رياح) إنّه لردّ فعل طبيعيّ." وفي التّاسع والعشرين من شهر نوفمبر، العام السّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، شارك في إصدار العدد الأوّل من جريدة البرلمان الجزائريّ، في الثّامن عشر من أوت، العام التّاسع والثّلاثين وتسعمئة، وألف، فمنعتالسّلطات الفرنسيّة إصدارها بعد عددها السّابع، بتاريخ السّابع والعشرين أوت العام التّاسع والثّلاثين وتسعمئة، وألف.وعقب إفراج السّلطات الفرنسيّة عنه في أواخر أوت العام التّاسع والثّلاثين وتسعمئة وألف، اتّجه في فترة قصيرة ليندمج في الوسط الفنّيّ، ويتعرّف على

عميد المسرح الجزائريّ محي الدّين بشطارزي، والتّعامل مع الممثّل الفكاهيّ محمّد الثّوريّ، وكانت فرصة سخّر فيها شعره ونثره، للكفاح عن طريق الأغنيّة الوطنيّة، فتشرّف بكتابة أناشيد لمطربين جزائريّين وتونسيّين، كما غنّى المطرب عبد الرّحمن عزيز أغلب قصائده، ورغم هذه العزلة الطّويلة الّتي أبعدته عن السّياسة، إلاّ أنّ المحتلّ لاحقه في كلّ مكان ليزجّ به في السّجن بتهمة تحريض المواطنين على الانتفاضة، فسُجن أربع مرّات خلال الأعوام 1940، 1945، 1949، 1951 لتُقدّر مدّة أَسْرِهِ كاملة سبع سنوات عجاف. ولعلّ في ذكرنا لاعتقاله إشارة إلى معاناته من وطأة الاستبداد، فقد مثّلت السّجون جزءًا كبيرا من كفاحه الجسديّ الأليم، لِمَا لاقى فيها من القهر، والتّعذيب، والتّنكيل."[16]ورغم اعتقالاته المتتاليّة وما رافقها من ضغوطات نفسيّة، إلاّ أنّه واصل نشاطه السّياسيّ بانتمائه إلى حركة انتصار الحرّيّات للدّيموقراطيّة المؤسّسة في العام السّابع والأربعين، وتسعمائة، وألف، غير أنّه سرعان ما التزم الحياد، لانشقاقات طالت الحزب في مطلع الخمسينات، فركّز اهتمامه على سبل الكفاح،لأجل استقلال المغرب العربيّ لإيمانه القويّ بعقيدة التّوحيد حتّى اندلعت نار الثّورة التّحريريّة فارتمى في أحضانها بما امتلك من إمكانات مادّيّة وروحيّة، فكان من أوائل المنخرطين في خلايا جبهة التّحرير الوطنيّ، ولعلّ شهادة الأستاذة نسيمة زمّالي تُوحي بإبداع الشّاعر خلال السّنوات السّبع الشّداد في قولها:" إنّ الفترة المحصورة بين اندلاع الثّورة والاستقلال هي مرحلة الثّورة المسلّحة، ففيها شُحِذَتْ شاعريّته، وبدت براعته الفذّة،وموهبته المتميّزة في أصعب الفترات، فإمّا أن يكون الشّاعر مدينا للثّورة الجزائريّة كونها حفّزته على كتابة أهمّ الأناشيد الوطنيّة المثيرة، أو تكون الثّورة ضدّ المستعمر مدينة لشاعرها الوفيّ بما زرعه فيها من قوّة وحماس لينعش به ما مات من نفوس المواطنين شيبا وصبيانا ونساءً." [17]وما إن اكتشفت السّلطات الفرنسيّة سرّ انتمائه الجديد

حتّى ألقت عليه القبض، في الثّاني عشر أبريل، العام السّادس والخمسين، وتسعمئة، وألف، ليمكث في ظلمات السّجن ثلاثة سنوات متتاليّة، إلى غاية الأوّل من فبراير العام التّاسع والخمسين، وتسعمائة، وألف. وفي أقسى مراحل حياته في السّجون (سركاجي، وبربروس، والحرّاش، والبرواقيّة) مبدعا- خلالها- أجمل أشعاره، وأروع أناشيده تمجيدا لملحمة الشّعب وبطولاته، وبمجرّد أن خرج من أنفاق الأسر تمكّن من الفرار إلى المملكة المغربيّة، ومنها إلى تونس، ليُعالَج على يد الطّبيب المتضامن مع الثّورة الجزائريّة فرانس فانون ممّا لحقه من تعذيب جسديّ، وباستقراره هناك أسهم مفدي زكريّاء في تحرير جريدة (المجاهد) الأسبوعيّة النّاطق الرّسميّ لجبهة التّحرير الوطنيّ خارج الوطن، فكان سفيرا لقضيّته العادلة بثوريّته القويّة، وشعره الحماسيّ، ومقالاته المتتبّعة لحوادث الوطن، ونقلها أصداء الثّورة بصدق عبر الصّحافة العربيّة، فاهتمّ بنشاطاتها ومستجدّاتها في النّدوات، والملتقيات الفكريّة، والمهرجانات الأدبيّة، فنال جائزة تكريميّة،في مهرجان الشّعر العربيّ بدمشق في الثّالث والعشرين سبتمبر العام الواحد وستين، وتسعمئة، وألف، بعد إلقاء نظمه المعروف بعنوان (رسالة الشّعر في الدّنيا مقدّسة) مغتنما فرصة تواجده بالمشرق العربيّ، فزار العديد منها ليشارك بنشاطاته السّياسيّة، والإعلاميّة، والأدبيّة، فيطبع ديوانه الأول (اللّهب المقدّس) ببيروت في لبنان في الخامس والعشرين نوفمبر العام الواحد والسّتّين، وتسعمائة، وألف، فتكرّمه أوساط أدبيّة، وثّقافيّة متعدّدة، إضافة إلى أشخاص أبدوا اهتماما شديدا بشاعر الثّورة أمثال الكاتب الصّحفيّ بلقاسم بن عبد الله الّذي أشار إلى أحقّيّة مفدي زكرياء في لقب شاعر كلّ من المغرب العربي الكبير، والثّورة التّحريريّة، وريادة الشّعر الحماسيّ والثّوريّ في الأدبَيْن المعاصرَيْن العربيّ والجزائريّ. إنّه الشّاعر العظيم الّذي سجّل النّقّاد عن خصوبة شعره وتجربته في مضمار الصّحافة. ونضاله دفاعا عن الحقوق

المهضومة. ومواجهته لشتّى أصناف الظّلم من الأباعد وإجحاف الأقارب في حقّه. ممّا ينمّ عن عظمة شاعر المغرب العربيّ وصاحب الفكر السّاعيّ بإلحاح إلىاتّحاده." [18]

2. **حياة الشّاعر بين الشّغل في المغرب وإبداع الإلياذة:**

وفي الحادي والسّتّين، وتسعمائة، وألف، شارك مفدي زكريّاء في التّظاهرة الّتي أُقيمت في المغرب لتتْويج الحسن الثّانيّ ملكا بعد وفاة والده الملك محمّد الخامس وكان - وقتها - شاعرا مرحّبا به بين الشّعب المغربيّ عامّة، والأسرة المالكة على وجه الخصوص. وما إنْ استقلّت الجزائر في الخامس جويلية،العام الثّاني والسّتّين وتسعمائة وألف، حتّى عاد إلى وطنه، فأقام فيها مكتبا خاصّا للخدمات الإداريّة ساحة الأمير عبدالقادر، كما يعود له الفضل في تأليف الدّليل الاقتصاديّ للمغرب العربيّ الّذي أكّد في مقدّمته دعوته المُلحّة إلى اتّحاد البلدان المغاربيّة. ولقد بادرت رابطة القلم بإقامة حفل تكريميّ له، ولديوانه الجديد (اللّهب المقدّس)، في السّابع عشر من فبراير العام الثّانيّ والسّتّين، وتسعمائة، وألف، فسمحت له المناسبة بإلقاء قصيدته (أمانا أيّها الشّعراء) وسط جمع غفير من رجال الأدب، والثّقافة، والفنّ والسّياسة. " وسرعان ما غادر مفدي زكريّاء الوطن إلى الشّقيقة تونس طلبا للاستقرار بها بين عامي الثّالث والسّتّين، وتسعمئة، وألف، والتّاسع والسّتّين، وتسعمئة، وألف، ثمّ اتجّه نحو المغرب، ليستقر به في مدينة الدّار البيضاء هناك استفاد من رخصة دائمة لفتح مدرسة ثانويّة خاصّة،وشاحنة لنقل السّلع والبضائع. فمكث يزاوج بين أعماله التّجاريّة، وإبداعاته الأدبيّة ومساهمته بالشّعر، ومشاركته فيالعمل الصّحفيّ، والمناقشات في الملتقيات بخاصّة ملتقى الفكر الإسلاميّ بدعوة من صديقه الأستاذ المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم الّذي وكان- وقتئذ- وزيرا للتّعليم الأصليّ والشّؤون الدّينيّة، هنالك توّج الشّاعر نضاله الفعّال، وعمله الثّوريّ، ونشاطه الأدبيّ

بإلقاء ملحمته الوطنيّة، ورائعته الشّهيرة (إلياذة الجزائر) في الرّابع والعشرين جويلية، في العام الثّانيّ والسّبعين، وتسعمئة، وألفبمناسبة انعقاد الملتقى السّادس للفكر الإسلاميّ بالجزائر العاصمة، وكم كان نظمه المطوّل، ليسَعَ سردا لتاريخ الوطن، وأمجاد الشّعب عبر العصور، فتكونَ ملحمة حقيقيّة لا خيال فيها، ولا أساطير، ولا خرافات" [19]، انزوى الشّاعر مفدي زكريّاء، في آخر مراحل حياته في محرابه الشّعريّ متعبّدا وطنه الأمّ مردّدا ترانيم الحريّة لإفشال مخطّطات المعتديّ الغاشم موقنا أنّ الإسلام دين الوطن، ومنه تستمدّ الثّورة قوّتها ومداد كلماتها، ومدَد أشعارها الصّامدة إلى درجة أيقن أنّ عامل الدّين وحده أشعل فتيل الثّورة المظفّرة وآمن أنّ بلده الجزائر لن تخطوَ خُطوة نحو النّور والرّقيّ ما لم تتمسّك بتعاليم الدّين الإسلاميّ وتشرب من مياهه الشّرُوب، لتصنعَ مسارَ هذه الثّورةِ المباركةِ. إنّها المعادلةُ الأوحدُ الّتي أدرك الشّاعر كُنهَهَا، فتغنّى بها في نظمه الّذي صار موردا يستقي منهالباحثون، الموادّ الخام لعلّهم يستخرجون منه الدرر. وما إن أحسّ الشّاعر بخطر المضايقة والملاحقة، حتّى أُجبر على الفرار سرّا إلى بلده الثّاني المغرب الأقصى ثمّ إلى تونس، لتكون آخر محطّة في حياته المليئة بالمغامرات والتّنكّرات.

2 ـوفاة الشّاعر في الظّلّ ومنتجاته غير المقدّرة:

توفّي في تونس يوم السّابع عشر أوت، العام السّابع والسّبعين، وتسعمائة، وألف، ليشيّع جثمانه الطّاهر فيها، قبيل نقله إلى وطنه من طرف أهله، حتّى يُدفن ببني يزقن مسقط رأسه، ويُودّع الشّاعر الثّائر مفدي زكريّاءحياة اتّسمت بالعناء بعد رحلة نصف قرن من العطاء المستمرّ في النّضال، والسّياسة، والإصلاح، والأدب، والتّوعيّة، والصّحافة، مخلّفا وراءه أربعة من الدّواوين المطبوعة بعناوين مختلفة هي:

اللّهب المقدّس الّذي كانت طبعته الأولى عن المكتب التّجاريّ ببيروت عام 1961 م.

تحت ظلال الزّيتون وقد كانت طبعته الأولى عن دار النّشر بتونس عام 1965 م.

من وحي الأطلس وطُبع أوّل طبعة عن مطبعة الأنباء بالمغرب عام 1976 م.

إلياذة الجزائر الّتي ظهرت في عدّة طبعات ما بين العامين 1972م \ 2002م.

أمّا منتجاته الأدبيّة المخطوطة المغمورة فهي غزيرة ومتنوّعة، أشار إليها مفدي زكريّاء نفسه في حوارات خاصّة أجراها معه الكاتب الصّحفي بلقاسم بن عبد الله في عامي الثّاني والسّبعين، وتسعمئة وألف، والخامس والسّبعين، وتسعمئة، وألف، حيث قال ردّا عن سؤال الكاتب حول مشاريعه المستقبليّة " إنّي بصدد طبع دواوين شعريّة جديدة استنادا إلى حماسي في الثّورة والكفاح السّياسي، وأحاول تنسيق كتاب لي في أربع مجلّدات يشمل تاريخ الأدباء العرب بالجزائر من الفتح الإسلاميّ لها إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى باقة مقتطفة منتقاة من أشعار الجزائر الشّعبيّة، في مختلف الأغراض الشّعريّة، والطّبوع إلى جانب دراسة تحليليّة لتاريخ الصّحافة العربيّة بالجزائر، غير أنّ هذه المُنتجات لا تزال على شكلها كمخطوطات مغمورة إلى حدّ السّاعة، أمّا الأعمال الأخرى فهي إمّا مطموسة، أو ضائعة."[20] ، وقد أشار صاحبها إلى أبرزها:

حوار المغرب العربيّ الكبير في معركة التّحرير. (اللّهجات) .الثّورة الكبرى (أوبريت) ،اليتيم في العيد (رواية).

عوائق انبعاث القصّة العربيّة. الصّراع بين الشّعر الأصيل والشّعر الدّخيل. تاريخ الصّحافة الجزائريّة. تاريخ الفولكلور الجزائريّ. أضواء على وادي ميزاب. (دراسة). نحو مجتمع أفضل. العادات والتّقاليد في المغرب الموحّد (أوبريت). في العيد (رواية). مذكّراتي. الجزائر بين الماضي والحاضر.انطلاقة. من وحي الأطلس. تحت ظلال الزّيتون. الخافق المعذّب.

مئة يوم ويوم بالمشرق العربيّ ،حيث يُعدّ هذا المؤلّف الأخير منتج ألّفه مفدي زكريّاء على منوال كتاب ألف ليلة وليلة حوى محاضرات مختلفة المضامين، بلغ عددها تسعا وعشرين، ألقاها شاعر الثّورة بالكويت، وقطر عبّر فيها عن مجريات الثّورة الجزائريّة ومميّزاتها، وما حقّقته من نصر مبين إلى جانب تسع أمسيّات شعريّة ألقاها أمام متذوّقي النّظم في مصر ولبنان، حيث لميزل السّواد من أعماله الصّحفيّة، والأدبيّة والفكريّة مجرّد حبر على أوراق متناثرة هنا وهناك. وممّاكشف عنه المشاركون في أحد الملتقيات العابرة للولايات في مدينة غليزان وكانت ثالث محطّة لهلمناقشة موضوع ثقافة مفدي زكريّاء الدّينيّة، وجهوده المبذولة حفاظا على الهويّة الإسلاميّة في مرحلة بذل المحتلّ ما في وسعه من القوى لاجتثاث المسلمين من جذورهم، وطمس صلتهم بالإسلام حيث قدّم الدّكتور بشير بويجره قراءة للقصيدة (ما للجبابرة ما لها؟)، مشيرا إلى تأثّر مفدي زكريّاء الواضح بالقرآن الكريم وتَجَلّي ذلك في روائعه رغم تميّزها بالطّابعالحماسيّ مذكرا أن أغلبها نظم في السّنوات السّبع العجاف في سجون العدوّ الفرنسيّ، كما كان مبرمجا – حينذاك – ملتقى وطنيّ موضوعه: (المباني القرآنيّة والمعاني الدّينيّة في نظم مفدي زكريّاء) بمسقط رأسه بغرداية، فخَصّصت وزارة الشّؤون الدّينيّة، والأوقاف جائزة (مفدي زكريّاء) لأحسن شرح لملحمته.[21] وأطلقت –كذلك- مؤسّسة مفدي زكريّاء بتلمسان اسم (رحبة مفدي زكريّاء) على الفضاء الّذي اعتاد الشّاعرمفدي زكريّاء أن يجالس فيه أصدقاءه، من أكابر الشّخصيّات

التّلمسانيّة الشّهيرة الّتي طالما تسامرت معه في أجواء ملؤها الحميميّة. كما احتفلتالمجلة السّعوديّة (بيادر) في فضاء المجمّع التّونسيّ للعلوم والفنون والآداب ببيت الحكمة معرضا وثائقيّا رسميّا، تضمّن رسائل الشّاعر الخاصّة وصوّره الشّخصيّة وبعض نصوصه المخطوطة الّتي عكست كثافة أنشطته الصّحفيّة، والأدبيّة، والسّيّاسيّة، والثّوريّة فاستدعي لهذا الحفل التّاريخيّ باحثون من الغرب العربيّ ومصر، فتدخّل يومها الدّكتور عبد الوهّاب بوحديبّة، ونجل الشّاعر مفدي زكريّاء سليمان الشّيخ بالحديث عن أهمّ الجوانب المشرقة والمشرّفة من سيرة والده، الأب والرّجل المثاليّ الّتي لُخصت لتُجْمِعَ على أنّه كان عظيما بشخصيّته، وقاره، ومواقفه الإنسانيّة، ونظمه وأدائه المتميّز في قراءته للشّعر، ولا يزال كذلك محافظا على عظمته، وسيبقى عظيما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد طالب الدّكتور أحمد الشّهاويّ من مصر في مداخلته: (مفدي زكريّاء لا يطربُه شعر الهوى قراءة في شعره المجهول) الباحثين بالجدّ والاجتهاد لجمع منتجاته، وإخراجها إلى النّور. أمّا مداخلة النّاقد المغربيّ الأستاذ عليّ الإدريسيّ لتركّز على نضاله المستمرّ وسعيه لاتّحاد البلدان العربيّة وإصراره على اتّحاد بلدان المغرب العربيّ الكبير.وقد أكّد الأستاذ محمد سيف الإسلام براعة الشّاعر مفدي زكريّاء في فنّيْ الصّحافة والأدب إلى درجة أنّ وَسَمَهُ بعملاق الأدباء الصّحفيّين، فصار شُعلة من نور أنارت سماء الجزائر في ماضيه وما تزال تسطع بأنوارها في ربوع حاضرها، لتبقى شمسا مشرقة في آفاق مستقبلها" [22]، وذكر مدني زيغم من جامعة سوق أهراس في مداخلة له عنوانها: (أدب المقاومة والثّورة لتحرير الجزائر) أنّ الشّاعر واكب الحركة الثّوريّة والوطنيّة بملاحم قطّر حبرها من دمائه، وسبك معانيها من روحه، ومن أعماق وجدانه، مُفضلاً كتابتها بالشّظايا، والرّصاص، والنّيران، لا الدّموع والعبرات، لينالللقب هوميروس الجزائر، والشّاعر الأسطورة، فرحل بعد حياة حافلة بالعطاء، مخلّفا وراءه

رصيدا ضخما،وميراثا سّياسيّا، وأدبيّا، وصّحافيّا، لدرجة أنّ وسائل الإعلام عجزت عن نشره لغزارته، فليتغمّده الله برحمته الواسعة."، وعرفانا بجهاده المتعدّد الأوجه من المطاردات والتّعذيب والتّنكيل، والأسر صار تاريخ رحيلهمناسبة تحتفل بها الشّعوب وطنيّا، ومغاربيّا، وعربيّا، فيجدر احتفال الجزائريّين كلّهم بالذّكرى السّابعة والثّلاثين لرحيل الشّاعر الثّائر مفدي زكريّاء تقديرا لصدق مشاعره، وتأثير كلماته في تحرّر الشّعوب. علما أنّ النّشيد الوطنيّ (قسما)، لا يزال يُحرّك أحاسيس الوطنيّة والانتماء السّياسيّ في نفوس المواطنين، فتقشعرّ أبدانهم إجلالا له واحتراما لمضمونه. وفي الجُعبة عبارات صرّح بها الأستاذ إبراهيم مصباح، أحد أبرز أعضاء مؤسّسة مفدي زكريّاء لإذاعة القرآن الكريم قائلا:" إنّ الشّاعر مفدي زكريّاء مناضل حرّ عايش ثورة الشّعب،بروحه الشّاعرة، ونفسه الثّائرة، وشخصيّته الحالمة، وآماله المشرقة بشمس الحريّة، وفؤاده الرّانيّ لوهج الصّبح وسط ظُلمات حالكة لحرب ضرُوس أشعلها محتلّ حاقد لكسر همّة الشّباب الجزائريّ المسلم، وتقويض أحلامهم ظنّا منه أنّهم سيخضعون لخُبثه، فتخبو جذوة ثورتهم.وأشار مولود عُويمر إلى جملة من الصّفات وصف بها الشّيخ عبد الحميد بن باديس شاعر الثّورة، في مقال كتبه في السّادس والعشرين من أبريل عام اثني عشر وألفين، بعنوان (مفدي زكريّاء في تصوّر الشّيخ ابن باديس) قائلا:" إنّه شاعر عبقريّ شاب نابغة من شباب بني يزقن بوادي ميزاب، نوّر الله قلوبهم وبصائرهم، وأنعم عليهم فصاروا شاعرين بآلام أمّتهم وآلامها منذُ نعومة أظفارهم، فأسرعوا يبحثون لها عن العلاج السّريع والنّاجع، وقد أدركوا أنّهم جزء لا يتجزّأ منها، فلا سعادة لأحدهم إلابسعادتها " كلمات قويّة منصفة، عرّفت بها جريدة البصائر لسان حال جمعيّة العلماء المسلمينالجزائريّين مفدي زكريّاء في العام السّادس والثّلاثين وتسعمائة، وألف، ولم يزل – وقتها - سوى شابّ يافع لم يكشف بعد عن كامل عبقريّته

الأدبيّة، وكفاحه الوطنيّ، وحنكته السّياسيّة. وقد توثّقت علاقته بحركة الإصلاح الّتي قادتها الجمعيّة كونها أوّل مؤسّسة جزائريّة تبنّتهوحملت لواءه حضّا على الجهاد والتّضحيّة في سبيل الله.'" [23]، ولقد" كانت رحلة المناضل الشّاعر إلى دمشق أهمّ المحطّات في مساره الشّعريّ في العام الواحد والسّتّين، وتسعمئة، وألف، حيث مثّل شعراء الجزائر في مهرجان الشّعر العربيّ، هناك سطع نجمه وتعرّف عليه الشّعراء العرب عن كثب، بعدما استمتعوا بروائعه عن بُعْد، فشدّ انتباههم بإنتاجه الغزير المتّقد حماسا وإباءً ووطنيّة، فزار عمّان، وبغداد، وبيروت، والقاهرة، والدّوحة، والكويت، والرّياض. مُسَجِّلا -خلالها- أحاديث إذاعيّة، ومقابلات صحفيّة، وأمسيّات شّعريّة. فبلغت رحلته أربعة أشهر حقّق جرّاءها نجاحا إعلاميّا مشهودا، فكان سفير الجزائر دون أوراق اعتماد، لكنّ سرعان ما أفل نجمه، وتبدّد دَوِيّ صيته لمّا تنكّر له الأقارب والأباعد، فتلقّفه النّسيان، إلاّ من المثقّفين الّذين عرفوا قدره، فلم يجرؤوا على الشّهادة له ولو بذكره، وسرد خصاله، رغم اعترافهم بمكانته الرّفيعة الّتي ما كان ليبلغها لولا مجهوداته الجبّارة في الميادين العديدة [24]، ومضت السّنون ثقيلة على الشّاعر في الغربة بعيدا عن ديار الأحبّة تجرّع آلام الشّوق رغم الأحضان الدّافئة الّتي ضمّه إليها إخوة له في الدّين واللّغة إلى أن لقي ربّه في الثّامن عشر أوت العام السّابع والسّبعين، وتسعمئة، وألف في تونس، حيث كان للرّئيس هوّاري بومدين موقف وطنيّ لا يخلو من الشّهامة والإنسانيّة أن أرسل طائرة خاصّة تنقل جثمانه الطّاهر إلى وطنه ليُوارى الثّرى، فما نعَاه إعلام، ولا صحف المرحلة، ولا مجلاّتها، وماذكرهشعراءولا أدباء، ولا مجاهدون، بل تنكّروا له، وصمتوا صمتا رهيبا أقلّ من همس المقابر إلى أن أوقد الله لهيبا من تحتالرّماد. فسخّر له الله الدّكتور حسن فتح الباب، فأوقف نفسه ناصرا له، وداعيّا إلى إنصافه، فبعد أعوام من قدومي إلى الجزائر، في خريف العام السّابع والسّبعين،

وتسعمئة، وألف، قرأت أشعاره مركّزا على ديوانه الثّوريّ الرّائع (اللّهب المقدّس)، فبهرني نظمهالحماسيّ الّذي عكس وجها مشرقا لثوريّته، وامتلاكه ناصيّة البيان، وتمكّنه من فنّ البديع حيث التّصريع الحاصل بين كلمتي (المدفع+ا) و(الأربع+ا) حيث اشتراك اللّفظين في حرف الرّويّ (ع) ووصله بالألف إشباعا لحركة الرّويّ فيقوله:

هذا نوفمبر قم وحيّ المدفعا واذكر جهادك والسّنين الأربعا

بالإضافة إلى قدرته على التّوظيف الأقوم لآيات القرآن الكريم في تّناصّ يقوّي نظمه. [25]ورغم عسر حياته الّتي عصفت بها زوابع القساوة في كلّ نواحيها، فمن العار أن يُقابل إحسانُه بالسّوء كجزاء سنمّار، ممّا جعل حسن فتح الباب يسارع إلى الكتابة عنه في مقال وحيد بعدّه المناضل الشّاعر المخلص الّذي لم يقدّر حقّ قدره إلاّ بعد رحيله عن الدّنيا حيث قال:" أبديت دهشتي من إنكاره، ولتّنكّر له، ولتضحيّاته الجسيمة، وإهمال نضاله المتعدّد، فدعوت بشدّة إلى إنصافه في الصّحيفة الكويتيّة (الرّأي العامّ) في شهر أكتوبر من العام الثّالث والثّمانين، وتسعمائة، وألف، فحاولت التّنقيب تحت ركام النّسيان والإهمال، فاستخرجت نضاله العظيم تقديرا لمسيرته الشّخصيّة والثّوريّة الّتي شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء، فأطْلعتُ الصّحفيّ الكاتب بلقاسم عبد الله على مقالي، لمّا لمست فيه نوعا من الاهتمام بالشّاعر،وكان – وقتها– مشرفا رئيسا على الملحق الأدبيّ لجريدة الجمهوريّة بوهران، وكأنّي مدَدْتُ له طوق النّجاة للكتابة عن شاعر الثّورة، لتتوسّع رقعة صدى مقاله في الجزائر ممّا أهّله ليكون أوّل صحفيّ اخترق الجدار المضروب حول شاعر الثّورة'" [26]الّذي" مثّل ضمائر الشّعوب العربيّة، وصوّر ما خالجهم من أمال وآلام حزّت في نفوسهم لسوء معاملة عدوّ حمّلهم ما لا طاقة لهم به، فانتصر لأمّته في نظمه، فمجّد الثّائرين،وقدّر العلماء، وخلّد الشّهداء، وحثّ الشّباب على النّضال، وبذل المالوالنّفس بسّخاء."[27]شأنه كشأن الشّعراء الوطنيّين،

لذا يعدّ مفدي زكريّاء، ومحمّد العيد آل خليفة فرسَيْ الرّهان في حلْبة حركتي التّحرير، والكفاح، ومثلُهما في اقتران اسم كلّ منهما بالآخر، مثل أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم في مصر، وإذا حسب التّاريخ الشّاعر محمود سامي البارودي، قرينا للأمير عبد القادر الجزائريّ، فإنّ كليهما كان ربَّ القلم والسّيف، فإنّ الشّاعرين مفدي زكريّاء ومحمّد العيد آل خليفة حفيدا الأمير عبد القادر في الشّعر، ورائدان من روّاد الشّعر الحديث، كما أنّ الشّاعرين أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم حفيدا محمود سامي البارودي، ورائدان بعده من روّاد مدرسة الإحياء الشّعريّ. ويتقاسمان الشّهرتين الأدبيّة والوطنيّة حتّى لقّب مفدي زكريّاء بشاعر النّضال السّياسيّ والثّورة المسلّحة لحياته أغلب عمره في غياهب الأسر وما يُرافقه من مرارة القيود والتّنكيل، أمّا الثّانيّ فهو شاعر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، ولسان حالها الّذي فُرضت عليه الإقامة الجبريّة مضحّيا بحرّيته في سبيل الله"[27]

3. **العوامل المؤثّرة في شاعر الثّورة:**

دارت عجلة الزّمان لتُنصف مفدي زكريّاء ليعود باقتدار وشرف إلى أرقى صرح في الأدب العربيّ، في حين تأسّف باحثون مشارقة كون اسمه لم يجد له مكانا مناسبا، أو ذكرا لائقابه بين الشّعراء، وهو الّذي رأى أنّ رسالة الشّعر مقدّسة، لم ينل حظّه من القداسة. لكنّها شهادة منّا للشّاعر" بعدّه رمزا من رموز الارتقاء نحو سماء النّزعة الوطنيّة والإسلاميّة والقوميّة انفتاحا منه على الأفق الإنسانيّ الرّحب بما فيه من قيم الخير والجمال، لذا أقبل الدّارسون على إنتاجه الغزير بالدّراسة والنّقد، لتصبحَ دواوينه طبقا يقبل عليه الدّارفي بحوثهم الأكاديميّة في الدّاخل والخارج، وهكذا اعتدلت له مسيرة التّاريخ، فنال حقّه، ولئن غاب بجسده عن عالم الأحياء، إلاّ أنّ روحه لا زالت تصول وتجول في كلّ مكان ارتقى فيها منسوب الوطنيّة، أو انخفض."[28] ، إنّ شخصيّة المرء تتأثّر بالبيئة الّتي عاش فيها، فتتّضح ملامحها من

المظاهر الّتي تبدو في سلوكه، وحركاته، وسكناته. فالبيئة إذن لا تنحصر في السّكن والأسرة حيث يعيش الفرد، وإنّما تتّسع لتكتسب مدلولها الفسيح، فيسهل فيها رسم الصّورة الحقيقيّة للّذي ترعرع في أحضانها. فهي إذا المحيط المتكوّن من الأشخاص، والطّبيعة والزّمان، والمكان، فيتفاعل معهم الإنسان، ويتأثّر بهم بناؤه، ويسري أثرهم في دمه فتترك بصمتها في شخصيّته مظهرا ومخبرا، فتكون مصفاة لغويّة له، حين ينساق إلى لغة بيئته بحكم التّعامل، أمّا وقد اجتهد ليصبح شاعرا أو ناثرا، فإنّها تتحوّل إلى مختبر جماليّ، يمنحه أعذب الأساليب وأروعها، زيادة على تزويده بأرقّ الألفاظ، وتدرّبه تدريبا يتوافق ونوعيّة قدراته وإمكاناته، فيستحيل من شخص فوضويّ إلى آخر منهجيّ، ومن جافّ إلى ليّن، ورّقيق. وفي الشّأن ذاته أشار الأستاذ الرّاشد في كتاب له بعنوان: (رؤى تخطيطيّة) قوله:"إنّها البيئة الاجتماعيّة والطّبيعيّة الّتي تؤثّر في الإنسان سلبا أو إيجابا فتترك بصماتها في سلوكه، وفكره، وأخلاقه لأنّه ابن بيئته إلاّ أنّ البيئة في حياة مفدي زكريّاء تنوّعت، فمن البيئة الصّحراويّة،والميزابيّة، والمحافظة، والبسيطةالّتي لقّحته بعناية ضدّ كلّ ما يُعدّ دخيلا عن نقاء أجوائها، إلى أخرى في الشّمال الشّرقيّ بين عنّابة وتونس وما تحتويه من عادات متباينة، وتقاليد مميّزة بامتزاجها وما وفد من أمور مستوردة من بلدان المحتلّ، إلى بيئة ثالثة في عالم السّياسة والنّضال، وما تحمله من صراعات، وتناقضات في المفاهيم حينا أو اتّفاقها أحيانا، إلى بيئة ظلمات السّجون ومشقّة المعتقلات حيث التّعذيب، والحرمان، وما أبشعها من بيئة![29]

أوّلا: أثر البيئة الثّقافيّة في شخصيّته:

إنّ البيئة الثّقافيّة الجزائريّة الّتي أنجبت مفدي زكريّاء حملت قبله علماء عباقرة، ومفكّرين أمثال عبد الحميد بن باديس، ومالك بن نبيّ، ومحمّد البشير الإبراهيمي، وشعراء، وكتّاب، وأئمّة أرضعتهم الجزائر من المنابع

العذبة الّتي تمثّلت في المساجد، والمدارس الأهليّة، والكتاتيب، زيّادة على دور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في تكوين المواطنين في جميع مجالات الحياة لذا انخرط في صفوفها السّواد من خيرة الشّباب الجزائريّ، وكهولها المخلصين للدّين، واللّغة، والأمّتين العربيّة والإسلاميّة، والقضيّة العادلة. وممّا يجدر بالذّكر" أنّ البيئة الصّحراويّة الإباضيّة الّتي نَبَتَ فيها مفدي زكريّاء شخصيّة، ووجدانا، أورثته خصائص إعرابيّة أصيلة طبعت شعره العربيّ، وحدّت معالمه. كما أنّها بيئة تفتّحت على الثّقافتين العربيّة والإسلاميّة طواعيّة، فاستمدّت منها قيم التّمدّن، والتّفقّه في الشّؤون الدّنيويّة والدّينيّة، فنشأ تزاوج شرعيّ بين الشّخصيّة العربيّة، والأمازيغيّة في إطار إسلاميّ ليُنْتِجَ شخصا أمازيغيّا أمّه العربيّة، وأبوه الإسلام، على رأي العلامة عبد الحميد بن باديس الّذي أشار إلى أنّ العرب والأمازيغ كتبوا آيات اتّحادهم، بما أراقوه من دماء طاهرة في ساحات الوغى، ومداد تدفّق من محابرهم في مجالس طلب العلم والمعرفة."[30]

ثانيّا: أثر العائلة في شخصيّته:

قال الشّاعر مفدي زكريّاء في إلياذته عن البيئة والأسرة اللّتين عاش فيهما:

تقدّس واديك منبع عزّي ومسقط رأسي، وإلهام حسيّ
وربض أبي، ومرابع أمّي ومغنى صباي، وأحلام عرسي
وعرق الأصالة، وطهر طبعي ونور الهداية أذهب رجسي
وكرّمت باسم المفاخر قومي وشرفت باسم الجزائر نفسي[31]

لعلّ البيت هو أوّل حيّز مكانيّ يعرفه الإنسان بعد رحم أمّه، ففيه تَجَمُّعُ العائلة بما تحمله من أفراد مختلفين، كما يُفترض أن يكون مصدر سكن ورحمة، ومودّة، وفيه يُنصّر المرء أو يُهوّد أو يُمجّسإن لم يحافَظ على فطرته الّتي خلقه الله– تعالى- وهي الإسلام. ولكنّه الشّيخ زكريّاء بن سليمان بن يحيى بن الشّيخ سليمان بن الحاج عيسى المولود في يوم الجمعة الثّاني عشر جوان

العام الثّامن، وتسعمائة، وألف، بقرية بني يزقن، أحد القصور السّبعة العريقة بوادي ميزاب، بغرداية في الجنوب الشّرقي للجزائر من عائلة محافظة تشبّعت بمبادئ الوطنيّة، وقيم الشّريعة الإسلاميّة. ممّا جعله يُدرك - مذ وعى– واقع شعبه ووطنه البائس. ليبذل ما في وسعه لتغيير الواقع المفروض على مواطنيه، وأن يُزحزح ما ثبّته الاستعمار من أوتاد الفاقة والجهل والشّقاء كَتْمًا للأنفاس ردحا من الزّمن، ممّا فرض على عقلاء الصّحراء التّفكير في الخلاص من الاستدمار، والخروج من عتمة نفق فرضه المحتلّ على شعب أعزل. وكيفيّة التّحرّر من قيود أدمى الظّالم بها معصميها. ومن كان يعتقد أنّ ذاك النّاشئ المشارك الوجهاء من سكّان غرداية جلستهم الاستشاريّةسيحمل همّ أمّته، وسيكون قلمها الفاصل بين الحقّ والباطل وسيتزعّم يوما جمعيّات وأحزابا مناضلة لرفع الغبن والبؤس عن شعبه، ومن كان يتخيّل أنّ هذا الصّغير عمرا، الكبير اهتماما سيحمل هموم وطنه الجزائر، ودينه الإسلام، وأمّته العربيّة؟ إنّهادوافع اجتمعت لتجعله مناضلا وشاعر رسالة، لا شاعر إمتاع وترفيه عن النّفوس. وقد حرصت أسرته على إعداد البيئة النّقيّة الصّالحة لزراعته عضوا نافعا، فينموَ بُرْعُما مُشبّعا بالمبادئ الرّاقيّة، ليكون شجرة مثمرة. فقد بدأ طفولته البريئة، وحياته التّعليميّة كأقرانه من براعم قريته في الكتاتيب بمسقط رأسه طلبا للعلوم الشّرعيّة، والتّفقّه في أصول اللّغة العربيّة، لينتقل بعدها إلى تونس الشّقيقة "حيث أقام في بيت عمّه صالح بن يحي، أحد كبار المناضلين ضدّ العدوّ الفرنسيّ في المغرب العربيّ، ومؤسّس الحزب التّونسيّ الدّستوريّ الّذي قاد الجهاد ضدّ الاستعمار، وبحكم إقامته تلك تعرّف على زعماء سياسيّين آخرين أمثال الشّيخ عبد العزيز الثّعالبيّ، وكان -وقتها- شابّا متابعا لأحاديث هؤلاء العظماء حول مآسي العرب والمسلمين، والمخاطر المحدقة بهم، فتأثّر

بهم أيّما التّأثّر. فاكتسب عزيمة فولاذيّة، وروحا وطنيّة، وعربيّة عميقة، وأخلاق فاضلة من منابع صّافيّة نقيّة. " [32]

ثالثا: أثرالصّحراء في شخصيّته:

من العادات الحسنة الّتي اعتاد عليها العرب الحضر القدامى أن يبعثوا أبناءهم – منذ الصّغر- إلى الباديّة، أو الصّحراء حيث الجوّ الحارّ، والهواء النّقيّ، والعيش الخَشِنِ، والغذاء الطّبيعيّ لعلّهم يتعوّدون على بساطة الحياة وبعدها عن الرّفاهيّة، وترف العيش فيعتمدون على أنفسهم، ويحتكّون بالرّعاة في مراعيهم، فيعون بعمق معنى المسؤوليّة. ولعلّ في ذلك ما ينطبع على شخصيّاتهم. فكم كان الطّفل مفدي زكريّاء محظوظا حيث احتضنته الصّحراء الشّاسعة احتضانا مباشرا في مولده ونشأته، فأمضى أغلب طفولته الغضّة وبعض شبابه فيها، فتشبّع بِشِيَمِ سكّانها الرّاقيّة، فتطبّع بها ليتميّز بخصوصيّة ابن الصّحراء الجزائريّة من الوضوح، والاستقامة، والنّزعة السّلفيّة الّتي انعكست في تفاخره بالمآثر، وتغنّيه بالفضائل، وتحلّيه بها اقتداءً بأهل الصّحراء، فنهل منهمسمات التّعاطف مع المظلومين. ممّا جعله يتبنّى قضايا أهل الصّحراء، ويعزف على أوتار آلامهم وآمالهم رغبة في استعادة ما هُضم من حقوقهم ليصكّ نظمه الانتفاضيّ طلبا للحرّيّة معتمدا ملكاته وخبراته في النّسج ليَفْتل خيوط الأمل، ويرسم بوضوح معالم النّهج المخضّب بدماء الشّهداء الطّاهرة مع الإشارة إلى ملامح المستقبل القادم حين يبزغ الفجر، وتُشرق شمس الرّخاء فيتذوّق المظلومون حلاوة الحرّيّة، ممّا جعل شعره رشيق المعاني، لطيف المقاصد. بديع المعاني، ليقول الدّكتور حسن فتح الباب:" إنّ الصّحراء قد منحت كلّ من شاعريها مفدي زكريّاء ومحمّد العيد آل خليفة نعمة الميلاد والحياة والصّفاء، وسعة الأفق، فوهباها مقابل ذلك الإخلاص في احتضان هموم أبنائها، والتّعبير عنها، فأعطتهما بذلك البذرة فتعهّداها بحسن الرّعاية، حتّى صارت ثمرة شهيّة

يانعة فآثراها بها، فالبذرة هي القدرة اللّغويّة. لأنّ الصّحراء موطن الفصاحة، والبلاغة منذ عهد امرئ القيس بل من قبله.[33] ،وعلى الرّغم من التّدنّي اللّغويّ الّذي حاق بالفصحى عبر القرون، إلاّ أنّ عاميّة جنوب الجزائر مازالت من أنقى اللّهجات الدّارجة في الوطن العربيّ، غير أنّ التّقهقر الّذي أصاب اللّغة العربيّة في عقر دارها ظلّ متشبّثا بها، فكان مفدي زكريّاء راهبا في محرابَيْ الصّحافة، ونظم القصائد، وعمادهما اللّغة العربيّة، فلا إبداع دون إتقانها، والتّحكّم في زمام قواعدها، والإلمام بعبقريّتها، والاطّلاع على فقهها، فأحبّ البلاغة، وعشق الفصاحة. ممّا جعل شعره سهلا، لا وحشيّة في كلماته، ولا في معانيه، إنّها من سمات البساطة في الحياة الصّحراويّة الّتي قال عنها ابنها البارّ:

" ألا ما لهذا الحساب ومالي وصحراؤنا... نبع هذا الجمال؟

هنا مهبط الوحي للكائنات حيال النّخيل... وبين الرّمال.

ومهد الرّسالات للعالمين ونور الهدى، ومصبّ الكمال.

هنا العبقريّات والمعجزات وصرح الشّموخ وعرش الجلال.[34]

تحدّث مفدي زكريّاء عن بيئته الأولى الصّحراء مادحا إيّاها بما يليق بها من الصّفات الدّالّة على الجمال المادّي الّذي حباها الله –تعالى- به من الرّمال، والجِمال، والنّخيل، والنّباتات ذات الخصوصيّة لتتكيّف وحرارة المنطقة ذاكرا مِنَحَ الله لها إذْ اختارها لتكون مهبط الوحي الإلهيّ، ومصبّ مكارم الأخلاق، لتقرب الإنسان من صفات الكمال البشريّ، ففي الصّحراء برز العلماء العباقرة في شتّى المجالات، فاعتلى فيها الإنسان صرح الشّموخ بمساعدة الله له، فارتقى عرش الجلال ممتطيّا تلك المعجزات الرّبانيّة الّتي سخّرها له.

رابعا: أثر الكتاتيب في شخصيّته:

منذ القدم عُدّت الكتاتيب أقدم المراكز التّعليميّة عند المسلمين، وغيرهم، حيث يذكر المؤرّخون كونها أماكن خُصّت بطلب العلم،عرفها العرب في جاهليّتهم قبل مجيء الإسلام إلى ديارهم فاستعانوا بهالتعليم أبناء الوُجهاء من القوم وأثريائهم فقط. حيث كانت تُتشبه مدارسنا الابتدائيّة، يتعرّف فيها المتعلّمون على أهمّ المبادئ الأوليّة كتعليم القراءة والكتابة. ولكنّ الرّسول الأعظم اهتمّ بتعليم المسلمين صّغارا وكبارا، رجالا، ونساء معا، فحين أمر أسرى المشركين عقب غزوة بدر الكبرى، أن يُسهموا في تعليم المسلمين القراءة والكتابة لمحو أميّتهم مقابل حرّيّتهم، وهو الدّليل القاطع على عناية الإسلام بالعلم والمعرفة، وحرص الكتاتيب على تعليم النّاس أحكام قراءة القرآن، والحساب، والآداب، والأخلاق، وقد كان أهمّ ما سعت إليه هذه المراكز المضيئة تعليم احترام قواعد اللّغة العربيّة للمتعلّمين. فاستقطبت أكبر عدد من الطّلاّب-عبر السّنين- فاحتلّت مكانة رفيعة في المجتمع، فلم تقتصر على تفقيههم في أمور دينهم ودنياهم فقط، إنّما أسهمت في توعيّتهم بأهمّيّة الحرّيّة في حياة الإنسان، لأنّ المستعبَد يعجز عن التّفكير السّليم، ولا يقوى على الإبداع مهما كانت قدراته، فمادام لا يملك زمام أمره، وحرّيّته، فإنّه لن يتحكم في قراراته فيخضع -لا محالة- لأعدائه. من هنا أعلنتها الكتاتيب حربا شعواء ضدّ مخطّطات الأعداء، وعزمت على إحياء ما ماتمن الضّمائر، فتفرّغت لحثّ الشّعوب على التّمرّد، وتحريضها على الإلحاح في المطالبة بحقوقها المشروعة، ممّا جعل العدوّ يتّخذ منها موقفا عدائيّا، ويردعها بقوّتي الحديد والنّار، فلم تكتفِ السّلطات الفرنسيّة في حملتها الظّلاميّة الشّرسة بمنعهاإنشاء مدارس حكوميّة، بل رفضت تأسيس المدارس الأهليّة بعدّها مراكز أسهمت في إنارة العقول، ووجهت من ضلّ وانحرف إلاّ أنّ المعلّمين الأحرار- بحكم واجباتهم الدّينيّة والوطنيّة– سعوا رغم العقوبات والمضايقات في توعيّة الشّعب في غُرف خاليّة تبرّعت بها أسر من المواطنين

نشرا للمعارف، وتوعيّة للجاهلين. إنّها الكتاتيب الّتي لا يُنكر المواطنون الصّالحون دورها الرّيّاديّ، ورسالتها السّاميّة الّتي أدّتها منذ انطلقت وبداية حياة الأفراد المؤسّسين لها، ومازالت تؤدّيها بإخلاص وأمانة، تحقيقا لغايات تربويّة راقيّة كانت لها اليد الطّولى في تطوير الإنسان ومجتمعه لمواكبة ركب المتحضّرين رغم أنوف المثبطين من الأعداء. تلك المدارس البسيطة المتواضعة شكلا وتجهيزا والعظيمة أداء في تخريجها الدّفعات المتتاليّة من التّلاميذ حبلت بهم بطونها، وقد تزوّدوا بمبادئ العلوم الشّرعيّة تحت إشراف علماء أجلاّء، ومشايخ أكفاء، فحفظوا آيات القرآن الكريم، فتشبّعوا بروح الدّين الإسلاميّ، فتشرّبت نفوسهم أسسه. فكان مفدي زكريّاء بُرعما من تلك البراعم النّاضرة الّتي أبت إلاّ أن تقتدي بمعلّميها، وتعبدّ السّبل للنّاشئة المتهافتة على اغتراف المعارف الدّنيويّة والدّينيّة من منابعها الأصيلة.

خامسا: أثر المساجد في شخصيّته:

هي دور العبادات أقامها المسلمون في مدنهم، وقراهم، ومداشرهم، لتُقامفيها العبادات المتنوّعة من صّلوات مفروضة، أو مسنونة، وخطب، ودروس، ومحاضرات، من شأنها أن تُحرّر أفكار الأناسي من قيود البدع الضّالّة والخرافات. إنّها المراكز الإشعاعيّة المنيرة مهما كانت مساحاتها، وطول مناراتها وزخرفة منابرها، وعدد سواريها، ومرتاديها، ومع ذلك فقد أسهمت المساجد والمصلّيات في تحريك همم المسلمين، وتحرير أذهانهم، وتقرير الثّورة المسلّحة في ألباب المواطنين وأرواحهم. تعدّ الدّروس النّابعة من المساجد مجالا أوسع لكسب العلم، وتعريف الرّوّاد المتعلّقة قلوبهم بالمساجد بأساليب تحليل قضايا الأفراد والمجتمعات، والتّعامل مع الحوادث المتنوّعة بمنطقيّة، ممّا يقوّي روح التّضامن بينهم، ثمّ يعزّز روابط الإخاء، ويُهذّب النّفوس، فتشيع المفاهيم التّحرّريّة، ممّا يُغذّي روح الغيرة على وحدة تراب الوطن وكرامة الأمّة، ويُطهر العقيدة من شوائب وضلالات تسرّبت إليها منذ عهود الجمود

والفتور، فالتّاريخ يشهد أنّالمساجد أدّت دورا مهمّا في إحياء ما مات من العقيدة، بتخريج الآلاف من الطّلاّب القادمين من كلّ أنحاء العالم طلبا للعلم والمعارف في مختلف التّخصّصات، واسألوه إن كنتم لا تعلمون.

سادسا: أثر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في شخصيّته:

تأسّست جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في عهد الاستدمار الفرنسيّ للجزائر العام الحادي والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، لتوعيّة المواطنين بخطر المؤامرة الّتي يحيكها العدوّ في الخفاء، وإعدادهم إعدادا إيجابيّا، يجعلهم يُقبلون طواعيّة على الجهاد في سبيل اللّه للتّحرّر من القيود المادّيّة والمعنويّة، والعمل بجدّ على الانفصال عن مركّب النّقص الّذي غرسته فرنسا في النّفوس خلال استعمارها للبلاد والعباد، وهذا ما جعل الشّعب يستفيق لينفض غبار الخُنوع والخُضوع عنه، ويدفع مشاعر اليأس بعيدا ويستبدل الأثواب القذرة بملابس العيد، وهو ما نستشفّه من قول الشّيخ محمّد البشير الإبراهيميّ- وهو يتحدّث بصراحة عن جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين،وكان نائبا لرئيسها:" إنّ المبدأ الّذي تسعى إليه جمعيّتنا يرمي إلى غاية جليلة هي طلب العلم النّافع، لتحرير الشّعب الجزائريّ واستقلاله فالتّحرير قسمان: تحرير الأرواح والعقول، وتحرير الأوطان، فالأوّل أصل للثّانيّ، فإذا لم تتحرّر العقول والأرواح معا من الأوهام والبدع والضّلالات والانحرافات في الدّين والدّنيا، كان تحرير الأبدان من الذّلّ والعبوديّة والأوطان من الاحتلال متعذّرا ومتعسّرا"31 فتوافق رأي مفدي زكريّاء ومبدإ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين المناهض لسياسة الإدماج، فانضمّ إليها رفضا لما صمّمت عليه فئات هشّة من المجتمع الجزائريّ ساعيّة لضمّ الوطن الغاليّ إلى فرنسا الاستعماريّة، وما تولّد عنه من طمس للشّخصيّة الجزائريّة وهويّتها بعد القضاء على تاريخها العريق، وتشويه تراثها العربيّ والإسلاميّ- لاسيما- وقدأبدى مثقّفو الجزائر إقبالا على انتماء جديد مقابل بتر صلتهم

بالتّليد، ممّا وسّع هوّة الصّراع بين أنصار الإدماج ورافضيه، هنا فضّلت السّلطات الفرنسيّة الزّجّ بمفدي زكريّاءورفاقه في الأَسْرِ يوم التّاسع والعشرين من أوت، العام السّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف، بتهمة التّآمر ضد المحتلّ وأنصاره إلاّ أنّ سجناء الفكر - رغم معاناتهم في سجن الحرّاش المظلم- تابعوا جميع نشاطاتهم السّياسيّة، فأنشأوا جريدتهم الثّوريّة (البرلمان الجزائريّ الأسبوعيّة) حيث عيّنوا مفدي زكريّاء رئيسا لتحريرها، ولمّا مضت سنتان من تأسيسها، اندلعت الحرب العالميّة الثّانيّة، فأجبرت الظّروف المستعمر على الإفراج عن الثّائرين، فراح المناضل يُسِرّ نشاطه الثّوريّ تفاديّا لملاحقات المحتلّ له، وخوفا من عرقلته لأعماله السّيّاسيّة بتجديد اعتقالاته ظلما، ليُحرم من تحريض المواطنين على التّمرّد، وهذا ما كان يخشاه.والظّاهر أنّ الشّاعر مفدي زكريّاء قد أفصح يوما عن مشروع أعدّه لتأسيس جمعيّة جديدة تحت اسم (التّوحيد) لِجمع شمل التّيّاراتالفكريّة والدّينيّة والوطنيّة، فاقترح لها الشّيخ الطّيّب العُقبيّ ممثّل العلماء المسلمين في العاصمة رئيسا، إلاّ أنّ هذا الأخير رفض طلبه إيمانا منه أنّ جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين كانت تلبّي الغايات الّتي تبنّتها جمعيّة (التّوحيد) بلا استثناء، لذلك لم يَرَ في الأمر مبرّرا لإنشاء أيّ جمعيّات ما دامت جمعيّتهم برئاسة العلماء الأجلاّء تفتح أبوابها لكلّ المخلصين، وتسعى إلى وحدتهم. رغم فشل مشروعه في تأسيس جمعيّة (التّوحيد) بعدم تجاوب جمعيّة العلماء معه، إلاّ أنّه ظلّ وفيّا لها ومروّجا لرسالتها، ومكرّسا كامل وقته، ومجهوداته للتّعريف بأعمالهم الجليلة، ومغتنما فرصة الذّكرى العشرين لوفاة العلاّمة عبد الحميد بن باديس، المتزامنة ومرور ستّة أعوام على اندلاع الثّورة التّحريريّة للكتابة عنرائد النّهضة الوطنيّة والإصلاحيّة للتّنويه بجهوده الإصلاحيّة وكفاحه الوطنيّ. وقد ذكر النّقّاد " أنّ الشّاعر مفدي زكريّاء نشرمقالا نثريّا صرّح فيه بعاطفته الصّادقة اتّجاه جمعيّة

العلماء المسلمين الجزائريّين النّابعة منصميم حبّه لهم، مؤرّخا بذلك لأهمّ مرحلة تاريخيّة بموضوعيّة الباحث، وصرامة المؤرّخ، حيث نشره في العدد الثّامن من (مجلة الفكر التّونسيّة) الصّادرة في شهر ماي، العام السّتّين، وتسعمائة، وألف، تحت إشرافالكاتب السّياسيّ محمد مزالي. وهو نصّ نثريّ يجهله الباحثون في شأن الحركة الإصلاحيّة في الجزائر، وقد ذكر جميع ما قام به المصلح عبد الحميد بن باديس، إحياء للدّين تحريرا للعباد من الاستعباد، واجتثاث جذوره من أصولهابتعميق وعي المواطنين وتأسيس الفكر الثّوريّ وبعث اللّغة العربيّة تطهيرا للمجتمعات الجزائريّة من بقايا الجهل بشهادة من شاعر الثّورة مفدي زكريّاء الّتي شهِدها، وقد كانت نار المعركة التّحريريّة ما تزال مشتعلة," [35]، وما كانت علاقة شاعر الثّورة مفدي زكريّاء بجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، ومختلف نشاطاتها سطحيّة، وإنّما اعتنق مبادئها السّمحة، وساندها في سرّائها وضرّائها، ليتجلّى ذلك بوضوح في قصيدته الرّائعة، حيث مجّدها وجهود علمائها، وأعمالهم الحضاريّة الّتي ما فتئت تربط بين علوم الدّنيا والدّين ببنائها العقول، وتطهيرها النّفوس، وجمعها بين وحي السّماء ووحي الدّماء بألفاظ عميقة عمق الهمزة الواردة في العلماء، والسّماء، الإباء، البناء، الأصفيّاء، والأغبيّاء... في المقطع الموالي، علما أنّ الهمزة هي أعمق الأصوات الحلقيّة بإجماع علماء الصّوت، في قوله:

وفي الدّار جمعيّة العلماء تُغذّي العقول بوحي السّماء.
وتهدي النُّفوس الصّراط السّويّ وتغرس فيها معاني الإباء.
تبني المدارس عبر البلاد فيُعلي ابن باديس صرح البناء.
ويعضد باديس فيها البشير ـــــــــ رفتزخر بالخلّص الأصفياء.
وتغزو الضّلالات في التّائهـ ين مع الوهم في موكب الأغبياء.
كذا لعيد العلماء، الثّنايا بوحي السّماء، ووحي الدّماء. [36]

سابعا: أثر رحلاته الدّاخليّة والخارجيّة في شخصيّته:

كان الشّاعر مفدي زكريّاءمن الّذين سافروا طوعا أو كراهيّة عبر الوطن الجزائر شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، أو خارجه، حيث اكتسب فوائد كثيرة، منها تعرّفه على أبطال حملوا الفكر التّحرّريّ من البُسطاء ممّا أهّله ليدرك كُنه المستعمر، ورغبته الجامحة في جمع الجنوب إلى الشّمال. ودفعه إلى توعيّة أفراد المجتمع، وتعبئتهم بالخطر الدّاهم، وتحذيرهم من مكائد دسّها العدوّ كما يُدسّ السّمّ في العسل، إضافة إلىرحلته الّتي قام بها إلى تونس ليتلقّى المعارفعلى أيدي علماء جامع الزّيتونة وغيره ليستسقي من خبراتهم فيستفيد من تجاربهم، هنا أحسّ بضرورة العودة إلى الوطن للجهاد في سبيل الله بما يمتلك من أدوات الشّاعر للتّحريض على الانتفاضة إعلاءً لكلمة الحقّ، وتحرير الوطن الّذي عاش أكثر من قرنحياة جدباء شُلّت فيها الأبدان، وأُصيبت القرائح بالخمول والعقول بالجمود، فعميت الأبصار والبصائر، واستسلمت النّفوس لقهر المذلّة، وآوت إلى الأوكار المظلّمة لتنام فيها حتّى تُشرق شمس محرقة، فتبدّد ما في الآفاق من غُيوم سوداء كما يفعل أهل زماننا،عندما تُغير عليهم قاذفات الموت والدّمار فيلجأون إلى المخابئ، في انتظار الإعلان عن انتهاء الشّر المستطير، ولأنّهم أناس جرّدوا من العزيمة والثّبات ما جعلهم أقلّ صمودا ومقاومة، فاستأثروا الفرار أو الالتجاء إلى الأقبيّة بعد أن أذّن مؤذّن اليأس معلنا ألاّ جهاد، وأنّ الاجتهاد قد أُغلق بابه فاستجاب المواطنون للإذعان، فطلّقوا كلاّ من الجهادوالاجتهاد، لأنّ ثانيّهما يتوقّف على أوّلهما، فالاجتهاد لا يقوم إلاّ على الحرّيّة الّتي لا يجلبها إلاّ الجهاد الّذي إن تركه الأحرار مكّنوا للاستعباد، كما أنّ في إبطال الاجتهاد تقتيلا للمواهب الوثّابة وتعطيلا لها." [37]

ثامنا: أثر مطالعته وعلاقاته بغيره في شخصيّته:

نظرا لأنّ الشّاعر مفدي زكريّاء أحد خرّيجي الكتاتيب فقد استفاد من اطّلاعه على كتاب الله، والتّاريخ الإسلاميّ فلا عجب أن يكون القرآن الكريم أوّل منبع

صاغ منه المعاني المقدّسة، والتأمّلات الرّوحانيّة ذات السّبك الجميل من استسقاء قصصه، وهو الحافظ لآياته، والمتمسك بها، وبما اكتسبه من عائلته المتشبّعة من منابع ربّانيّة نهل منها خبراته وتجاربه وأشعاره، زيّادة على قراءته لأدباء المشرق، وبحكماطّلاعه العميق على نظمي العصر الجاهليّ وصدر الإسلام كاد يصنّف سليل شعراء الحكمة العرب، فالحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى بها، ولو من أفواه المجانين إلاّ أنّ الشّاعر تعامل وعقلاء أمّته فتجلّت حكمته في سلوكه، وقصائده، وتأثّره بالقرآن الكريم معنى ولفظا. كما تزوّد مفدي زكريّاء بالمعارف، ونال عدّة شهادات في المدارس التّونسيّة، فما كانت هجرته تلك للرّاحة والاستجمام، وإنّما للاستفادة من مناخ ثقافيّ ساد تونس في أحرج مراحل احتلالها، فنهل ثقافتهالعربيّة الأصيلة من أنقى مصادرها، فاستسقى ما مكّنه من ناصيّة لغة الضّاد، حيث تعامل مع أقوال أفصح الشّعراء والخطباء، فتنوّعت المؤثّرات في بناء شخصيّة الشّاعر، إلى حدّ أنّنا لا نَقْوَى على وصفه بما يليق به من الفضائل الكريمة لهذا آثرنا أن نقتطف باقة من حدائق ما تردّد عنه، فنبدأ بما ذكره أولئك الّذين عرفوه طالب علم أثناء مراحل تعلّمه المختلفة فتميّز بحسن تصرّفه، وسلامة نواياه، وحدّة ذكائه، وحضور بديهته، ممّا جعله محطّ إعجاب معلّميه وأساتذته، ومحبّتهم له. وقد عاش الشّاعر مفدي زكريّاء ملتزما بقضايا الثّورات العربيّة، والمغاربيّة، والحركات التّحرّريّة في العالم، وظلّ مدافعا عن الدّين الإسلاميّ، ومذكّيّا حبّ الإسلام في قلوبهم حتّى لا تتهاوى أخلاقهم، ولا يغرّنّهم الغرب بنعيق مدنيّته الجوفاء، ويشدّهم إليه بزيف بريقها، فكان يتصوّف أحيانا، فيتّخذُ من حبّه الإلهيّ معراجا نحو الصّفاء. ويشهد الأستاذ إبراهيم مصباح لشاعر الثّورة قائلا:"سوّد ذكر شاعر الثّورة الصّحائف بما خلّف من دواوينَ شعريّة، ومقالات صحفيّة في عدّة مجلاّت، وكتب، وتسجيلات إذاعيّة في وطنه المغاربيّ. وكم يجهل السّواد من الباحثين

أنّ الشّاعر قد ترك معجمااقتصاديّا لم يُطبع بعدُ، فقد كانالوجهَ المشرّف للنّضال إبّان الثّورة، كما بثّت الإذاعة الجزائريّةبالمناسبة تسجيلا نادرا له شمل خطابا مهمّا، ألقاه في البقاع المقدّسة أمام ملإ غفير تناول فيه خلود الرّوح الإنسانيّة بعد الموت، وفناء جسد صاحبها، دعا خلالها إلى الاهتمام بصناعة الأمجاد، والعناية بالمآثر، وصناعة الملاحم." [38] كان مفدي زكريّاء رفيع الثّقافة، حصيف التّفكير، بليغ اللّغة، مبدعا لا يقبل بالمناقشات الضّيّقة أو السّطحيّة، إنّما كان وطنيّا واسع الآفاق، وعاطفيّا يحبّ الحياة، وموضوعيّا في التّحليل، ومنطقيّا في طرح القضايا، ومناضلا ليكون الواقع أفضل، وعُرف بكثرة ارتجاله. فكان حريصا على جمال مظهره، ومخبره معا.'" [39]واشتهر المناضل بانفتاحه على الجميع وتواضعه، وخلقه الكريم، وسماحة طبعه، ولطيف عشرته، وبساطة سلوكه، وميله للدّعابة، وابتسامته الدّائمة، وسرعة انسجامه" ويكاد الّذي يلتقي بالشّاعر لأوّل وهلة يلاحظ أنّه عرفه من قبل، فيحادثه ببساطة، وكأنّه تعرّف عليه منذ أمد طويل زيّادة على سخائه،ومدّه يد المساعدة بلا تكلّف، ولا تأفّف، ولا تحفّظ." [40]، وذكر الأستاذ محمّد قنّاش:" أنّ ثمّة فوجا ظريفا أثار انتباه متتبّعي الحركة الأدبيّة يضمّ الشّعراء مفدي زكريّاء، ورمضان حمّود، وأبا القاسم الشّابّيّ، كانوا على اتّصال مستمرّ، تشدّهم إلى بعض لحمة وطيدة مكّنتهم من تشكيل شبه مدرسة أدبيّة صغيرة، اهتمّت بشؤون أدب المهجر شعرا ونثرا، وما حمل معالم الوطن والوطنيّة، ولكن سرعان ما فكّك الرّدى أواصر علاقتهم، بوفاة الشّاعر رمضان حمّود في العام التّاسع والعشرين، وتسعمائة، وألف، ليلحقه الشّاعر الشّاب أبو القاسم الشّابيّ في الرّابع والثّلاثين، وتسعمائة، وألف. فلم يبق إلاّ الشّاعر مفدي زكريّاء في هذه المعركة، ولو قدّر بقاؤهم متكاتفين، لتقدّموا بالأدب العربيّ الثّوريّ بخطوات عملاقة تغيّر وجه التّاريخ، وتُعطي النّهضة العربيّة دفعا جديدا، ومع هذا قدّم الشّاعر مفدي

زكريّاء ما عجز عنه الكثيرون، ويكفيه فخرا نظم (إلياذة الجزائر) في زمن كان العالم العربيّ في أزمة خانقة."[41]ولعلّ من حقّ الأمّة على الأدب أن يُوحي إليها بالثّقة في نفسها، واعتزازها بماضيها، والمجد في مستقبلها، فقد كان هذا الفنّ- على مدى تاريخ الشّعوب- عاملا من عوامل نهضتها، يتأثّر بانتفاضتها القويّة، ومقاومتها الباسلة ليؤثّرفي مسيرتها. وقد يسبقها ليمهّد لها، ويستشرف ملامحها، أو يصاحبها منذ انطلاقتها، لمضاعفة شدّتها، والزّيادة في اندفاعها، وقد يلحقها فيُشيد بها وبأبطالها، ويخلّد آثارها ومآثرها." [42]

الخاتمة:

في مرحلة مليئة بالظّروف القاسيّة تجعل الإنسان يتجرّد من وطنيّته طوعا أو كراهيّة وينشغل بتوافه الأمور مهمِلا العظائم ممّا يستدعي البحث في ميراث وطننا الحبيب عمّا يعيد الجزائريّين إلى سكّة الوطنيّة حتّى لا تحيد مركبتهم عن الصّواب، وتغرق سفينة الوطن في بحر هائج من الضّلالات حيث لا ملجأ من التّيه سوى الرّجوع إلى ما شهد به تاريخ الجزائر، وأكّدته منتجات شاعر الثّورة الغزيرة، وتضحيّاته المتنوّعة في حياته من الملاحقات، والمنفى، والسَّجن في سبيل الوطن وكرامة الجزائريّين ولعلّ في ذلك شفيعا لمفدي زكرياء، ومؤهّلا له ليعتلي هرم الوطنيّة والغيرة على الوطن العربي الكبير، فيكون معلّمنا، وطلاّبنا، ومتتبّعي روائعه الدّروس في حبّ الوطن الّذي دافع عنه في مؤلّفات عرفناها، وأخرىضّائعةخلّفها في مجالات شتّىكالأدب، واللّغة، والتّأريخ، والسّياسة، والإصلاح...غير أنّها لم تُعَرْ أي اهتمام حتّى يومنا هذا.

فَأَمَا آن لنا –نحنالأكاديميّين أن نعقد العزم على البحث الجادّ عن منتوجات الشّاعر المناضل المفقودة، ونجدّد العهد معها قراءة، ونقدا، إعدادا لها للطّبع،وإثراءً للمكتبات العربيّة والجزائريّة، وفتحا لمجال البحث أمام المجتهدين لدراسة منتجاته وتحليلها. تمّ انتقاء ما تناسب ومقرّراتنا الدّراسيّة وبرامجنا التّعليميّة؟

الهوامش:

1. نسيمة زمالي، قراءة في إلياذة الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، ط2012، ص 119\ بتصرّف
2. مفدي زكريّاء، إلياذة الج، المقطوعة 4، ص22
3. مفدي زكريّاء، **إلياذة الجزائر**، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1987، القصيدة الرّابعة
4. المرجع نفسه، القصيدة الحاديّة عشرة.
5. المرجع نفسه، القصيدة الثّانيّة.
6. المرجع نفسه،القصيدة الواحدة والخمسون.
7. المرجع نفسه، المقطوعة السّادسة، ص24
8. يحي الشّيخ صالح، شعر الثّورة عند مفدي زكريّاء، دراسة فنيّة تحليليّة، ،دار البعث، قسنطينة، ط1، 1987، ص 43 \ بتصرّف.
9. نسيمة زمالي، قراءة في إلياذة الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، ط2012، ص 120\ بتصرّف
10. من حوارمفدي زكريّاء، المنشور بجريدة الشّعب الثّقافيّ سنة1972، العدد 1775 Le temps d'Algerie
11. حسن فتح الباب، مفدي زكريّاء شاعر الثّورة الجزائريّة، دار الرّائد للكتاب الجزائر، ودار المصريّة اللّبنانيّة، ص 33 طبعة 2010.
12. بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكريّاء شاعر مجد ثورة، عن دار القدس العربيّ بوهران، ترجمة الأستاذ حسين ديب.
13. بلحيا الطّاهر، تأمّلات في إلياذة الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الجزائر، ص45، ط 1989 \ بتصرّف.
14. نسيمة زمّالي، قراءة في إلياذة الجزائر لمفدي زكريّاء، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 2012
15. عبد النّاصر بوعليّ، العلاقات الدّلاليّة في شعر مفدي زكريّاء، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط1، 2014
16. محمّد ناصر، مقال بعنوان: شاعر الثّورة في مراحل حياته، مجلّة الثّقافة، العدد 93\ بتصرّف
17. نسيمة زمّالي، قراءة في إلياذة الجزائر لمفدي زكريّا، دار الهدى، عين مليلة. الجزائر، ط 2012 ص 9 من مقدّمة الإلياذة بقلم الدّكتور مولود قاسم نايت بلقاسم.\ بتصرّف.
18. حسن فتح الباب، مفدي زكريّاء شاعر الثّورة الجزائريّة، دار الرّائد للكتاب الجزائر، ودار المصريّة اللّبنانيّة، طبعة 2010 ص 34\ بتصرّف.

19. مولود قاسم نايت بلقاسم، من مقدّمة إلياذة الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الجزائر 1978
20. من حوارمفدي زكريّاء، المنشور بجريدة الشّعب الثّقافيّ سنة1972، العدد 1775 Le temps d'Algerie
21. حسن فتح الباب، مفدي زكريّاء شاعر الثّورة الجزائريّة، دار الرّائد للكتاب الجزائر\ ودار المصريّة اللّبنانيّة، ط2010، ص11
22. المرجع نفسه.
23. المرجع نفسه
24. المرجع نفسه.
25. المرجع نفسه
26. المرجع نفسه.
27. المرجع نفسه
28. المرجع نفسه
29. مولود عويمر من مقال له بعنوان(مفدي زكريّاء في تصوّر الشّيخ عبد الحميد بن باديس) بتاريخ: 26 أبريل 2012
30. حسن فتح الباب، مفدي زكريّاء شاعر الثّورة الجزائريّة، دار الرّائد للكتاب الجزائر\ ودار المصريّة اللّبنانيّة، ط2010، ص32
31. المرجع نفسه.
32. عبد النّاصر بوعليّ، العلاقات الدّلاليّة في شعر مفدي زكريّاء، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط1، 2014 الصّفحتان ،57 ،58
33. مفدي زكريّاء، إلياذة الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر،1987،القصيدة 17
34. نسيمة زمالي، قراءة في إلياذة الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، ط2012، ص 11\ بتصرّف
35. مفدي زكريّاء، إلياذة الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر،1987،القصيدة 18
36. يحي الشّيخ صالح، شعر الثّورة عند مفدي زكريّاء، دراسة فنيّة تحليليّة، ،دار البعث، قسنطينة، ط1، 1987، ص 209 \ بتصرّف.
37. مولود عويمر، مقال له عن (مفدي زكريّا في تصوّر الشّيخ عبد الحميد بن با ديس) بتاريخ: 26 أبريل 2012
38. مفدي زكريّاء، إلياذة الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر،1987،القصيدة 44
39. الشّيخ محمّد البشير الأبراهيميّ، مقال في صحيفة الدّعوة، بتاريخ شهر أوت 1954، ورد ذكره في الصّفحة 121 من كتاب حقائق وأباطيل للشّيخ عبد الرّحمن شيبان، الطّبعة 2 في العام 2009، منشورات تالة، الأبيار، الجزائر.
40. المرجع نفسه.

41. بلقاسم بن عبد الله، مفدي زكريّاء شاعر مجد ثورة، عن دار القدس العربيّ بوهران، ترجمة الأستاذ حسين ديب.
42. محمّد العربي الزّبيري، من محاضرة ألقاها يوم 15 أكتوبر 1985 بالمركز الثّقافي الجزائريّ بباريس، فرنسا، جريدة المجاهد الأسبوعيّة العدد 1316 ص 40